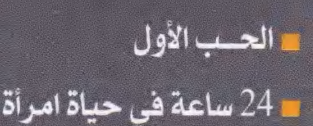
للناشئين والشباب

روائع الأدب العالمي 10

في كبسولة

عرض وتبسيط: حسين عيد



مكتبة الدار العربية للكتاب


مكتبة
طريق العلم

روائع الأدب العالمي في كبسولة 10

مما لاجدال فيه أن هناك أعمالاً أدبية رائعة.. تجاوزت حدود مؤلفها وحدود بيئته والمكان والزمان.. تقبل أن تكون ما اتَّفقَ عليه التلقي الإنساني بوضعها في كوكبة " روائع الأدب العالمي في كبسولة ".. كمحاولة متواضعة لوضع ذلك الرصيد الهائل من التجارب الإنسانية الأدبية أمام الأجيال القادمة لتستلهم منها القيمة والتجربة..

ويضم هذا الجزء تسع قصص .. تأتي في بدايتها (الحب الأول) لإيفان تورجنيف حيث آلام الحب الأول وأحلامه، وتليها (24 ساعة في حياة امرأة) لاستيفان زفاييج ملقية الضوء على النزوات الأولى في الحياة، يعقبها (موت في فينيسيا) لتوماس مان ، وهي تعبير عن تأمل الجمال المجرد كيفما كان، ثم تأتي قصة (الشريكان) للويجي بيراندللو، وفكرة الصداقة، وما حدودها النفسية بين الأصدقاء، وتأتي قصة (السائق المأجور) لسنكير لويس حيث المدنيّ الغر الذي يقع فريسة دهاء قرويٍّ ماكر، بينما تأتي قصة (القيمّ على منارة اسبينول) لهنريك سينكويز لتحكي العالم الصاخب الذي ينتهي إلى هدوء صامت في حياة قيم المنارة العجوز ، وتحكي لنا قصة (القط الذي يمشي وحيدًا) لرديارد كيبلينج سر العلاقة بين الإنسان والحيوان من قديم الزمان ، ثم تأتي قصة (راسيلاس : أمير الحبشة) لصمويل جونسون لتناقش فكرة الحرية التي لا تقبل القيود حتى لو كانت قيود الملك والجاه ، وأخيرًا قصة (نحن) ليفجيني زمياتين لتناقش سلطوية الحكم وتسلط الثورات.



9 789772 936816

مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي 10

في كبسولة

عيد، حسين .

روائع الأدب العالمي في كبسولة (10) / عرض وتبسيط حسين عيد

. ــ ط 1 ــ القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2012 .

184 ص ؛21 سم . (روائع الأدب العالمي في كبسولة للناشئين والشباب ؛ 10)

تدمك : 8-681-293-977 - 978

1 - القصص - مجموعات .

2- الأدب - مجموعات .

أ ــ عيد ، حسين (عرض وتبسيط) .

ب ــ السلسلة . 808.83

©

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1619 / 2012

الطبعة الأولى ، صفر 1433هـ - يناير 2012م .

للنـاشئين والشبـاب

10

روائـــع الأدب العالمي

في كبســـولة

عرض وتبسيط : **حسين عيد**

- الحب الأول
- 24 ساعة في حياة امرأة
- موت في فينيسيا
- الشريكان
- السائق المأجور
- القيم على منارة اسبينول
- القط الذي يمشي وحيدا
- راسيلاس : أمير الحبشة
- نحن

مكتبة الدار العربية للكتاب

المحتويات

مقدمـــة

يتضمن هذا الكتاب ثمانية أعمال من بستان القصة العالمية التي تتخذ من العلاقات الإنسانية والعلاقات الخيالية محورين لها.

بدت أولى العلاقات الإنسانية في علاقة حبّ ربطت بين فتى يافع وفتاة جميلة محنكة وذلك في «الحبّ الأول» للروسي إيفان تورجنيف. وتجلت الثانية عبر علاقة غريبة بين سيدة عجوز وشاب من عمر أبنائها وذلك في «24 ساعة في حياة امرأة» للنمساوي ستيفان زفاييج. وبرزت الثالثة في علاقة إعجاب بين كاتب عجوز مع فتى جميل كان يتمنى أن ينجب مثله وذلك في «موت في ڤينيسيا» للألماني توماس مان (نوبل 1929). وكانت الرابعة انفصالًا مفاجئًا بين جارين تزاملا زمنا طويلا وذلك في «الشريكان» للإيطالي لويجي بيرنديلو (نوبل 1934). وظهرت الخامسة في علاقة فهلوة بين قروي نابه وابن مدينة بريء وذلك في «السائق المأجور» للأمريكي سنكلير لويس (نوبل 1930). وجاءت السادسة معنوية عبر حنين مواطن عاش معزولا في جزيرة بعيدة إلى موطنه القديم وذلك في «القيم على منارة اسبينول» للروماني هنريك سينكويز (نوبل 1905).

كما بدت هناك ثلاث علاقات خيالية في المحور الثاني. جرى في أولاها تخيّل بدء الحياة على الأرض وكيفية نشوء العلاقة بين البشر والحيوانات

وذلك في «القط الذي يمشي وحيدا» للانجليزي ريـدیارد كيليـنج (نوبـل 1907). وظهرت الثانية في هروب أمير الحبشة مـن معتزلـه الآمـن الـذي يجهزه للتتويج وذلك في «راسيلاس: أمـير الحبشـة» للانجليـزي صـمويل جونسون. وتنبأت الثالثة بمستقبل خيالي لعالم صناعي معزول داخل سـور زجاجي أخضر عن بقية أجزاء الأرض التي أصابها الخراب يعيش فيه مـن نجا من حرب المائتي عام وذلك في «نحن» للروسي يفجيني زمياتين.

وأخيرا يحدوني أمل كبير أن يجـد القـراء في هـذا الكتـاب بعـض المتعـة والفائدة.

وبالله التوفيق..

مايو 2010

حسين عيد

الحب الأول

فكر ربّ الدار في طريقة مثيرة لإزجاء وقت اللقاء مع صديقيه المقرّبين «سرجي نيكولايفتيتش» و«فلاديمير بتروفيتش» ، اللذين كانا يقتربان من الأربعين من عمريهما، وإن ظلا عازبين، فاقترح عليهما أن يحكي كلّ منهم قصة حبّه الأول. ووافق الصديقان على الفكرة، وإن أجلوا تنفيذها إلى سهرة قادمة!

وتناول ربّ نفس الدار العشاء في اللقاء التالي مع جماعة من الأفراد. وما أن تفرقت الجماعة بعد العشاء، ودقت الساعة معلنة تجاوز منتصف الليل، ولم يبق في الدار سوى الأصدقاء الثلاثة، راح صاحب الدار يدخن سيجارا مضطجعا على كرسي وثير، وسرعان ما ذكرهما بما سبق أن اتفقوا عليه، واقترح أن يبدأ «سرجي نيكولايفتيتش» بإطلاعهما على حكاية حبّه الأول.

تطلع «سرجي» إليهما، ثم رفع بصره إلى السقف، وأخبرهما بأنه لم يكن له حبّ أول، لأنه بدأ مباشرة بالثاني!

وحين أثار فضولهما، فسّر الأمر بقوله إنّ غزل فتاة جذابة لم يكن شيئا جديدا عليه فقد سبق أن غازل كثيرات منذ يفاعته الأولى، وإن اعتبر أن حبّه الأول والأخير كان لمربيته وهو في السادسة من عمره!

التقط رب الدار خيط الحديث مستطردا بأنه لم يكن في حكايته ما يشوق أيضا؛ لأنه لم يحب حتى قابل زوجته الحالية، ثم أوضح مستطردا أنه ليس في قصته ما يستحق أن يروى، وأنّه كان يعتمد على تجربتهما كعازبين.

هكذا لم يبق سوى «فلاديمير بتروفيتش» الذي رحّب بالدعوة، لكنه اقترح أن يكتب كلّ ما يتذكره من حكايته، ثم يقرأها عليهما بعد ذلك!

قوبل اقتراحه في البداية بالرفض، لكنهما رضخا إزاء إصراره، واجتمعوا مرّة أخرى بعد أسبوعين، وكان «فلاديمير بتروفيتش» عند وعده، فقد حضر اللقاء ومعه مخطوطة حكاية حبّه الأول.

***

جرت أحداث تلك القصة في صيف عام 1833، وكنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري وأعدّ نفسي للجامعة. كان أبي قد تزوّج أمي، التي تكبره بعشرة أعوام لاعتبارات مالية، وهو لا يزال شابا وسيما، وعاشا في موسكو، فكانت حياتهما كئيبة لكونها غيورا، لكنها كانت تخافه خوفا شديدا. ورغم أنني كنت ابنهما الوحيد، كان أبي يعاملني دون اكتراث لكن بلطف بينما كانت أمي قلما تلحظني.

استأجر والداي منزلا ريفيّا لقضاء الصيف بالقرب من حدائق «نسكتشني». كان إلى جوارنا مبنيان، شغل أيسرهما مصنع ورق جدران، وظلّ المسكن الآخر القديم خاليا.

كنت أقضي الوقت متجوّلا في حديقة منزلنا وحدائق «نسكتشني» ، وغالبا ما كنت أنشد أشعارا ممّا أحفظ بصوت عال. كما كان لي مهر أسرجه

بنفسي وأركبه، وأنطلق وحيدا قاطعا مسافات طويلة، متخيّلا نفسي فارسا يصول ويجول.

وذات يوم بعد ثلاثة أسابيع، رُفِعَتِ الستائر عن نوافذ المسكن المجاور، وبدت في نوافذه وجوه نساء، وحين سألت أمّي أحد الخدم على الغداء عن السكان الجدد، أخبرها بأنّها الأميرة «زاسكين» ، فعقبت أمي بأنها أميرة لكنها فقيرة. عندئذ رمقها أبي بنظرة باردة، فلزمت الصمت. كم كان ذلك أمرا مثيرا للدهشة، فكيف تكون أميرة وتستأجر منزلا متداعيا؟!

***

اعتدت التجوّل في حديقتنا كلّ مساء. وحدث أن اقتربت من السياج الذي يفصل بين حديقتنا وحديقة المسكن المجاور، وفجأة سمعت صوتا فنظرت من خلال السياج، فرأيت ما صعقني. كانت هناك فتاة طويلة هيفاء جميلة المحيا، وقد التفّ حولها أربعة شبان، وكانت تلطمهم بأزهار صغيرة على وجوههم واحدا بعد آخر. بدا في وجه الفتاة شيء فاتن، ساحر، جذاب، وكان الشبان يقدمون جباههم بلهفة. سقطت بندقيتي على العشب، ونسيت كلّ شيء وفجأة سمعت صوتا بالقرب مني يسألني هل يجوز أن أحملق هكذا في فتيات لا أعرفهن؟ أسقط في يدي. رأيت رجلا فاحم الشعر ينظر إليّ بسخرية، والتفتت الفتاة أيضا نحوي فبهرني وجهها الوضّاء، الذي اهتزّ كله فجأة وهي تضحك، فشعرت بالخجل، والتقطت بندقيتي من الأرض، وأسرعت بالانصراف إلى غرفتي، يكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، وقد غمرني سرور لم أشعر به من قبل أبدا!

***

عندما صحوت في الصباح، رحت أفكر في كيفية التعرّف إليها، وخرجت إلى الحديقة قبل تناول شاي الصباح، فلم أر أحدا. وبعد الشاي عدت أتطلع إلى النوافذ، مفكّرا في أنّها قد تكون وراء إحدى تلك النوافذ. وإذا بالقدر يمدّ لي يد العون، حين تلقت أمي من جارتها أثناء غيابي، خطابا توسلت فيه الأميرة إلى أمي أن تساعدها بنفوذها القوي على تحقيق ما فيه مصلحتها ومصلحة أسرتها، وختمت خطابها بأن استسمحت أمي أن تأذن لها بالزيارة.

ترددت أمي قليلا، خاصة أن أبي لم يكن بالمنزل حتى تستشيره، كما كان مستحيلا ألاّ ترد على سيدة، بل أميرة، ولم تدر أمي كيف ترد عليها، وما أن رأتني حتى سرّها حضوري، وطلبت مني أن أذهب فورا إلى بيت الأميرة، وأشرح لها شفاهة أن أمي يسعدها دائما أن تقدّم لسموّها أية خدمة تستطيعها، وأنها ترجوها أن تأتي لزيارتها في الساعة الواحدة. كم كنت مسرورا، وكأنّ السماء استجابت دعائي!

***

كانت أعضائي ترتجف، وأنا أدخل مسكن الأميرة. قابلني خادم عجوز في الممر الضيّق، فسألته عمّا إذا كانت الأميرة «زاسكين» موجودة؟ وسرعان ما ناداه صوتها من الداخل طالبة منه أن يدخلني إلى حجرة الجلوس.

كانت هناك امرأة في الخمسين تجلس بالقرب من النافذة. تقدمت إليها وأخبرتها بأمر الرسالة التي أحملها من أمي. وفي تلك اللحظة، فتح بسرعة باب آخر، ووقفت بعتبته تلك الفتاة التي رأيتها في المساء السابق بالحديقة.

رفعت يدها وحيتني، وعرفتني الأم بابنتها «زينوتشكا» وعرفتها بي أيضا. كانت في الحادية والعشرين من عمرها بينما بلغت السادسة عشرة، فاستأذنتني بمرح أن تناديني باسمي الأول «فلاديمير» فوافقت. وسرعان ما دعتني إلى مساعدتها في لفّ بعض الصوف، وأشارت إليّ برأسها، فخرجنا من حجرة الجلوس ودخلنا حجرة أخرى كان أثاثها أفضل قليلا. تحركت كأنّي في حلم، وأحسست نوعا من السعادة لم آلفه من قبل أبدا.

جلست الأميرة الصغيرة. تناولت شلة من الصوف الأحمر، ثم أجلستني في مقعد أمامها، وحلت الشلة بعناية، وجعلتها بين يدي. لم أستطع أن أرخي بصري عنها. ثم طلبت مني أن أدعوها «زينايدا ألكسندروفنا» وفاجأتني بضرورة أن أكون صريحا معها بشأن ميلي إليها، فأخبرتها أنني أميل إليها فعلا.

ربتت على أصابعي برقة، وانشغلت بحلّ شلة الخيط، وانتهزت فرصة كانت تغضّ بصرها فيها، ورحت أراقبها خلسة أولا ثم بجرأة بعد ذلك. كم كانت عزيزة عليّ، قريبة من قلبي!

سمعنا صوت الأميرة العجوز، وهي تهتف من حجرة الجلوس، بأن «بيلزوروف» قد أحضر لها قطة، فاندفعت «زينايدا» ناهضة من مقعدها ماضية إلى حجرة الجلوس، وعلى الرغم من أنني ترددت لحظة، إلاّ أنني سرعان ما تبعتها. رأيت «زينايدا» تركع أمام قطة رقطاء ترقد وسط الحجرة وهي ترفع وجهها الصغير بحذر، بينما وقف ضابط شاب من سلاح الفرسان إلى جانب الأميرة العجوز. كان أحد الشبان الذين شاهدتهم بالأمس.



راحت «زينايدا» تداعب القطة، وبعد أن شبعت من مداعبتها، طلبت من أحد الخدم أن يأخذها بعيدا، وإذا بالضابط يطلب مبتسما ثمن القطة فمدت له يديها، وحين كان يقبلهما، كانت تنظر إليّ عبر كتفه. جمدت في مكاني صامتا، وفجأة لمحت من خلال الباب المفتوح إلى الممر خادمنا «فيدور» الذي كان يشير إليّ فمضيت إليه، فأخبرني هامسا بأن والدتي قد غضبت؛ لأنني لم أعد بالردّ رغم انقضاء ساعة من الزمن. أدهشني سرعة انقضاء الوقت، ومضيت من فوري إلى «زينايدا» وأخبرتها بضرورة عودتي إلى البيت.

في البيت عنفتني أمي متعجبة ممّا كنت أفعله طوال كلّ ذلك الوقت في منزل الأميرة. لم أجبها، وتوجهت مباشرة إلى حجرتي الخاصة. فجأة داهمني حزن شديد.. كنت أغار من الضابط!

***

زارت الأميرة أمي، ولم تنل رضاها. لم أكن حاضرا الزيارة، لكن هذا ما أخبرت به أمي أبي أثناء تناول الغداء، ثم أضافت بأنها دعتها هي وابنتها إلى تناول الغداء في اليوم التالي. قال والدي إنه عرف في صغره المرحوم «زاسكين» ، الذي كان شخصا مهذبا لكنه عابث عاش زمنا طويلا في باريس، وعلى الرغم من أنه كان واسع الثراء إلاّ انه ضيّع ثروته على القمار، ثم تزوّج ابنة أحد الوكلاء ربّما بسبب المال، وراح يشتغل في المضاربة حتى جلب على نفسه الخراب!

بعد الغداء، ذهبت إلى الحديقة، وقد آليت على نفسي ألاّ أدنو من حديقة «زاسكين». لكن قوة قاهرة جذبتني إلى هناك، ولم أكد أقترب من السياج حتى لمحت «زينايدا». كانت هذه المرّة وحدها، تمسك بين يديها كتابا. وكدت أن أدعها تمضي، لكني غيّرت رأيي، وسعلت، فأدارت ظهرها، ونظرت إليّ وابتسمت ببطء، ورجعت تتطلع إلى الكتاب، فمضيت بقلب مثقل لتجاهلها وجودي.

فجأة وجدت والدي يتقدم نحوي، ويسألني عما إذا كانت تلك هي الأميرة الصغيرة، فأومأت بالإيجاب، فمضى أبي ولما صار بإزاء «زينايدا» ، انحنى لها انحناءة لطيفة، فانحنت له هي الأخرى، وعلى وجهها شيء من الدهشة بينما سقط الكتاب من يدها. ثم رأيت كيف تابعته بنظرها. كان أبي شديد العناية بهندامه، الذي بدا بسيطا لكنه فريد الطراز. وجهت خطاي نحو «زينايدا» ، لكنها لم تكلف نفسها أن تمنحني ولو نظرة، ثم التقطت كتابها ثانية وانصرفت.

***

قضيت المساء كله وبداية اليوم الذي تلاه، في نوع من بلادة حزينة، وأذكر أنّي حاولت أن أقرأ، ففتحت كتابا لكنني لم أفهم شيئا، فألقيت بالكتاب جانبا.

وصلت الأميرة وابنتها قبل موعد الغداء بنصف ساعة. بدأت السيدة العجوز تتحدث فورا عن مشكلاتها المالية، وهي تتنهد وتشكو فقرها وتسأل المعونة. وكانت «زينايدا» على عكس أمها أميرة مترفعة فعلا في سلوكها. جلس أبي إلى جانبها أثناء الغداء، فكان يؤنس جارته بذلك

الأدب الكامل الهادئ الذي تميّز به. وكانا يتبادلان النظرات بشكل يكاد ينمّ عن عداوة. دار بينهما حديث بالفرنسية، وأدهشتني «زينايدا» بسلاسة نطقها. ومن الواضح أنها لم تعجب أمي، التي قالت عنها في اليوم التالي، إنّها مزهوّة بنفسها! أما أنا فلم تعرني «زينايدا» أيّ اهتمام. ولما انتهى الغداء، نهضت الأميرة، قائلة لأبي وأمي بأنّها ستعتمد على معونتهما الكريمة!

عند الانصراف، دعتني «زينايدا» وهي مارة بجواري إلى زيارتها في الثامنة!

***

دخلت مسكن الأميرة في الثامنة تماما. صحبني الخادم العجوز إلى حجرة الجلوس. فتحت الباب، ثم تراجعت في ذهول. كانت الأميرة الصغيرة وسط الحجرة، واقفة على كرسي، تمد يدها بقبعة رجل، واجتمع حول الكرسي خمسة رجال. كانوا يحاولون أن يضعوا أيديهم في القبعة، وهي ترفعها فوق رءوسهم وتهزها بعنف، فلما رأتني، دعتني لمشاركتهم، وأن آخذ تذكرة أنا أيضا!

عرّفتني بمن حولها من الرجال وهي تشير إليهم واحدا بعد الآخر: الكونت «نيرماتسكي»، الدكتور «لوشين» ، «ميدانوف» الشاعر، اليوزباشي المتقاعد «تروماتسكي» ، و«بيلفزوروف» ضابط سلاح الفرسان، ثم أوصتنا أن نكون خير أصدقاء!

كان الدكتور «لوشين» ، هو الرجل الذي سبق أن أخجلني في الحديقة بلا رحمة. وطلبت «زينايدا» من الكونت أن يكتب تذكرة لي، واضطر

الكونت أن يكتب لي التذكرة تحت إلحاحها، وهو يخبرني بأن المحظوظ الذي تكون الورقة الرابحة باسمه سيقبل يدها، وحين سحبت ورقة من القبعة، رأيت مكتوبا عليها «قبلة» ، فصاحت «زينايدا» بأني ربحتها!

طلب مني «بيلزورروف» أن أتبع النظام وأركع بإحدى ركبتي. ورأيت «زينايدا» أمامي، وقد مالت برأسها قليلا، ومدّت إليّ يدها مزهوة، فركعت بركبتيّ معا، وضغطت بشفتيّ أصابع «زينايدا» مضطربا، وهنأني «لوشين»، وساعدني على النهوض!

أسكرتني كلّ هذه الضجة والصخب والمرح المتحرر بالنسبة لي، أنا الصبي الذي تربى دائما في عزلة، بدار يجللها الوقار، فبدأت أضحك بصوت عال شاعرا بسعادة غامرة. واستمرت الألعاب، حتى الثانية عشرة مساء، حين قدم العشاء. وبعد العشاء غادرت المنزل، وقد أنهكتني السعادة، وضغطت «زينايدا» وهي تبتسم يدي أثناء رحيلي!

***

في الصباح، حاولت أمي أن أقصّ عليها كلّ ما حدث في بيت الأميرة، فحذفت كثيرا من التفاصيل، محاولا أن ألبس ثوب البراءة لكلّ شيء. لكنّ أبي بعد أن انتهى من تناول شاي الصباح، أخذني من ذراعي ومضى بي إلى الحديقة، وأجبرني على أن أقصّ عليه كل ما رأيت عند آل «زاسكين»!

لا يكاد أبي يهتم بأمر تعليمي، لكنه لم يجرح مشاعري قط، بل كان يقدّر حريتي ويعاملني بأدب جم. كان مثلي الأعلى وكنت أعجب به، لكن

الغريب في أمر التعامل بيننا هو أنه كان دائما ما يجعل بيني وبينه فاصلا، لكنه نصحني هذه المرّة أن أكون سيد نفسي قويّ الإرادة أينما كنت.

حين سألت أبي عمّا إذا كان في مكنتي أن أصحبه، رفض بلطف وانصرف. رأيت قبعته تتحرك في محاذاة السياج، ثم اختفى في مسكن آل «زاسكين» ، ولبث هناك ما لا يقلّ عن ساعة!

***

ذهبت بعد الغداء بدوري إلى منزل آل «زاسكين» ، فقابلتني الأم وطلبت مني أن أنسخ لها عريضة، وأن أكتبها بحروف كبيرة، وفي تلك اللحظة فتح باب الحجرة المجاورة، فرأيت من خلال فرجة الباب وجه «زينايدا» ، شاحبا مستغرقا في التفكير، وحين نادتها العجوز، لم تجب، فأخذت عريضة العجوز معي إلى المنزل، وأمضيت المساء كله في نسخها!

منذ ذلك اليوم، لم أعد صبيا، فقد كنت أحبّ. ومنذ ذلك اليوم أيضا بدأت آلامي. أصابني النحول وأنا بعيد عن «زينايدا» ، وتغيّر كلّ شيء من حولي. كنت أقضي أياما بطولها أفكّر فيها تفكيرا شديدا. ولم أكن خيرا من ذلك في حضرتها، فقد كنت غيورا، وكنت أشعر بتفاهتي، لكن كانت هناك قوة قاهرة تدنيني دائما منها، فلم أكن أملك أمر نفسي وأنا أتخطى عتبة بيتها. كانت تسلّي نفسها بغرامي، وتدللني وتعذبني. كنت كالشمع المطواع بين يديها، وإن لم أكن في الحقّ أحبها وحدي، فقد جنّ بها كل الذين يزورون منزلها، لم تكن في غنى عن أحد منهم، فقد كان لكل منهم دور مرسوم

يؤديه، وجانب من المتعة يوفره لها. كان يلذ لها أن تنعش الآمال، ثم تثير المخاوف، وتلعب بهم جميعا!

***

انصرفت عن العمل والقراءة، بل وعن التجوّل وركوب حصاني أيضا، كنت أدور فقط وأدور حول المسكن الصغير المحبب إليّ. كانت أمي تنهرني، بل إن «زينايدا» نفسها كانت أحيانا تطردني، فأصعد إلى حجرتي، أو أهبط إلى أقصى ركن من الحديقة.

ظلت «زينايدا» تلعب معي لعبة القط والفأر. تغازلني فيتملكني كلّ الحبور ثم تنبذني فجأة فلا أجرؤ على الدنو منها!

كنت يوما أسير في الحديقة بجانب السياج المعهود، فوقع بصري على «زينايدا» التي رفعت رأسها فجأة، وأشارت إليّ إشارة آمرة، فلبيت النداء وقفزت فوق السياج لتوّي، وجريت إليها فرحا، لكن نظرتها حملتني على الوقوف. أخيرا سألتني عمّا إذا كنت أحبها. لم أنطق ببنت شفة. وإذا بها تعترف لي بأنها شقيّة!

حدّقت فيها، ولم أستطع أن أعرف لم كانت شقية. وبعد أن هدأت طلبت مني أن أنشد لها بعضا من الشعر. جلست وأنشدت. ثم سرعان ما طلبت مني أن نمضي إلى البيت، فقد جاء «ميدانوف» بقصيدة جديدة، وهناك قرأ قصيدة تضطرم بالحب. وعندما تلاقت عيناي مع عينيها غضّت بصرها ورأيت الدم يصعد إلى وجنتيها، فجمدت من الرعب، بعد أن التمع في ذهني خاطر أنها تحبّ!

***

طرأ تغيير على «زينايدا». كان ذلك واضحا، وبدأت تسير وحدها، وتطيل السير. وكانت أحيانا لا تقابل زوارها، وقد تجلس في حجرتها ساعات متصلة!

بدأت أفرض نوعا من الرقابة حولها. كنت أخشى الكونت أكثر من غيره. ولعلّ الدكتور «لوشين» أحسّ بما أفكر به؛ لأنه سرعان ما اقترب منّي وحذرني من أن ضررا قد يصيبني؛ لأنّ جلدي مازال رقيقا، أما هم الكبار فقد صاروا صلابا!

***

كانت «زينايدا» تزداد غرابة بمضي الأيام. ذهبت يوما إليها، فوجدتها جالسة على كرسي من القش، وقد ضغطت برأسها على حافة مائدة حادة، لكنها ما أن رأتني حتى تمالكت نفسها. كان وجهها كله مخضلا بالدموع، ونادتني وطلبت أن أقترب منها، وإذا بها تضع يدها فوق رأسي، وتمسك شعري، وفجأة بدأت تشدّه، وحين قلت بأنّ ذلك يؤلمني، توقفت. وسرعان ما اكتشفت أنها اقتلعت خصلة صغيرة من الشعر، فتأذت وأخبرتني بأنها ستضع شعري تميمة حول عنقها!

عدت إلى منزلي، كانت أمي تتشاجر مع أبي، تلومه على أمر ما. وكان من عادته أن يلزم الهدوء البارد اللطيف، وسرعان ما تركها. انتقدت أمي غاضبة كثرة زياراتي للأميرة، التي كانت على حد قولها امرأة يتأتّى منها أيّ شيء!

***

كنت فتى يائسا وحيدا غارقا في التخيّلات أنشد العزلة والوحدة في مستنبت متهدم حيث أعتلي جدارا مرتفعا يعلو عن الأرض بأربع عشرة قدما تقريبا، وأجلس فوقه. وكنت يوما أجلس هناك ناظرا إلى الأفق البعيد، وحين نظرت إلى أسفل، رأيت «زينايدا» تقطع الدرب مسرعة، وعليها دثار خفيف، ولمّا وقع بصرها عليّ توقفت وتحدتني أن أقفز إذا ما كنت أحبّها. لم تكد «زينايدا» تنطق بكلماتها حتى وجدت أنّي أهوي إلى الأرض، كأنّ أحدا من خلفي دفعني بقوّة. كانت الصدمة قوية فلم أستطع الوقوف، ولبثت لحظة مغشيا عليّ، فلمّا تمالكت نفسي أحسست «زينايدا» بقربي، وبدا في صوتها رقة وجزع وهي تلومني لفعلي وتدعوني للنهوض. كان صدرها يخفق قريبا مني، ويداها تداعبان رأسي، وبدأت شفتاها الناعمتان الغضّتان تغمران وجهي بالقبل، و..لمستا شفتي. لكنها حين أدركت أني استعدت وعيي، نهضت مسرعة ناعتة إيّاي بالولد الخبيث، وطالبتني بسرعة العودة إلى البيت.

***

حين دخلت مسكنها في اليوم التالي، شعرت بارتباك شديد، حاولت أن أخفيه وراء ستار من الحياء. لكن هدوء «زينايدا» كان كدلو ماء بارد صبّ على رأسي، وتحققت عندئذ أنني لم أكن عندها إلاّ مجرّد طفل، وهو ما جعلني شديد البؤس!

دخل «بيلفزوروف» ، وأخبرها بأنه لم يستطع أن يجد لها جوادا وديعا، فاستفسرت منه عمّا يخشاه؟ وحين أخبرها بأنها لا تعرف كيف تركب، وهو

ما قد يشكل خطرا عليها، ثارت ثورة عارمة، وهددته بأنها ستطلب ذلك من «بيوتر فاسيليفتش»..

كان ذلك اسم والدي، وقد دهشت لذكرها اسمه بمثل تلك البساطة، كأنّها كانت على ثقة تامة من استعداده لخدمتها!

واحتدم بينهما النقاش، وانتهى بأن طلبت من «بيلفزوروف» الذهاب لتدبير أمر ذلك الجواد. وخرج الرجل، فخرجت معه دون أن تحاول «زينايدا» أن تستبقيني!

***

نهضت مبكرا في اليوم التالي، وسرت خارج المدينة، محاولا أن أسرّي عن نفسي. كان موعد الغداء يقترب، فرحت أسير في الوادي، وكان هناك درب يفضي إلى المدينة فمضيت فيه، وسرعان ما سمعت وقع حوافر خيل، فتلفت حولي بحركة غريزية، وجمدت في مكاني، وخلعت قبعتي، لقد رأيت أبي و«زينايدا». كانا يركبان متجاورين، وكان أبي كمن يهمس إليها بشيء. رأيتهما أولا وحدهما، لكني بعد لحظات قليلة، رأيت «بيلفزوروف» يبدو في منعطف الدرب.

أسرعت الخطى، ورجعت إلى منزلي في موعد الغداء تماما. كان أبي قد جلس إلى جانب أمي بعد أن غيّر ملابسه. سألتني أمي أين كنت النهار بطوله، كدت أجيب بأنني كنت أمشي وحيدا، لكني حين نظرت إلى أبي، لزمت الصمت!

***

مرضت «زينايدا» في الأيام التالية، وإن لم يمنع هذا ضيوفها من زيارتها. كان «لوشين» هو الوحيد من بينهم، الذي كان يزورها مرتين.

كانت «زينايدا» تتجنبني. لاحظت أن وجودي يضايقها، وأصبحت تبتعد عني. فكّرت بأنه قد حدث لها أمر لم يصل إليه إدراكي، وهو ما أدّى إلى تغيّر وجهها وتغير كلّ شيء فيها.

بعد ثلاثة أيام، قابلتني في الحديقة. ابتعدت عنها، لكنها أوقفتني وحاولت أن تتلطف معي، لكنني ثرت عليها، بأنها لا تريدني أن أحبّها، فدعتني إلى أن نكون صديقين؛ لأنها كأختي الكبيرة بحكم عمرها. وحين اعترضت، أخبرتني أنها ستنعم عليّ بمرتبة وصيف، ثم أضافت وهي تحذرني، بألا أنسى أن الوصيف يجب أن يلازم سيدته، ثم وضعت وردة في عروة سترتي، كشارة لنعمتها. ثم مالت عليّ وطبعت على جبيني قبلة طاهرة وادعة!

***

بعد العشاء، التقت الجماعة في المسكن مرّة أخرى، وخرجت إليهم الأميرة الصغيرة. كانوا جميعا هناك، لم يتخلف منهم أحد. واقترحت «زينايدا» أن يحكي كلّ فرد منا حكاية من وحي خياله لا تكلف فيها. بدأ الضابط «بيلفزوروف» حكايته، وكم كانت مملة، فتدخلت «زينايدا» بسرد حكاية خيالية حول حفلة رقص أقامتها ملكة شابة في ليلة من ليالي الصيف. كان الرجال جميعا يحبّون الملكة، ويحاولون التقرّب منها ونيل رضاها. لكن الملكة كانت تحدّق إلى الحديقة، وهي تنصت إلى خرير نافورة

بين الأشجار، وكانت تفكّر بأنهم جميعا يحتشدون حولها، وهم مستعدون للموت عند قدميها، لكن هناك عند النافورة بالليل، كان ينتظر الذي تحبه. لم يكن ثريا، أو معروفا، لكنه كان ينتظرها!

وحين التفتت «زينايدا» داعية إيّاي، سخر «مالفسكي» مني كوصيف للملكة وسرعان ما طردته بصوت مرتعش وهي تشير إلى الباب، لكنه بادر بالاعتذار، وتدخّل الحاضرون لتهدئة الجو. عندئذ رأيتها ملكة حقيقية تطرد أحد رعاياها المتجبرين. ثمّ تذكرت تعبير وجه «زينايدا» ، وهي تقصّ حكايتها، وفكّرت في من هو ذلك الذي يملك قلبها؟!

***

في اليوم التالي، لم أظفر من «زينايدا» بغير لمحة عابرة، كانت هي والأميرة العجوز تركبان عربة تنطلق بهما إلى مكان ما. رأيت أيضا «لوشين». وكان هناك «مالفسكي» الذي تلطف معي ناعتا إيّاي بالوصيف، ثم انخرطنا في الحديث، فسألني عمّا أفعل، ثم ذكرني بكلمات زينايدا «عند النافورة في الليل» ، منبها إيّاي أن تلك هي نقطة المراقبة الجديرة بالاهتمام، وضحك وانصرف، لكن كلماته شغلتني تماما!

وحين انتصف الليل، مضيت إلى الحديقة، بعد أن عينت المكان الذي سأراقب منه. كانت شجرة من أشجار الصنوبر، تنفرد بموقع متميّز عند نهاية الحديقة، في مكان يتصل فيه الجدار المشترك، بالسياج الذي يفصل بيننا وبين آل «زاسكين».

مضت ساعة، وبدأت أهدأ. بل وانتابني شعور بأنّ كلّ ما أفعله هو مجرّد عبث، وبأن «مالفسكي» هزأ بي، فتركت موقعي، لكن خيل إليّ أن بابا فتح، فانحنيت ومددت رأسي إلى الأمام، وإذا برجل يبدو.. يا إلهي، لقد كان أبي!

خامرتني ظنون محيرة. كانت كلها أفكار غريبة عليّ، فلم أجرؤ على تتبعها!

***

نهضت في الصباح، مصدّع الرأس. كان كلّ شيء قد انتهى، لكني رغم هذا ذهبت لأراها، فعرفتني بأخيها الصغير، الذي كان في الثانية عشرة، من تلاميذ المدرسة الحربية. وسرعان ما انهمرت دموعي غزيرة عندما أصبحنا وحدنا فارتاعت «زينايدا» وراحت تتساءل عمّا أصابني، لكني تحوّلت عنها، وهمست بين عبراتي بأني أعرف الأمر كله وأنها كانت تلعب بي. واجهتني نافية ذلك تماما. وحين نظرت إليّ ملكتني تماما. وما هي إلاّ ربع ساعة حتى كنا نتسابق، أنا وهي وأخوها. لم أكن أبكي، بل كنت أضحك وإن انحدرت دمعة أو دمعتان أثناء ضحكي!

***

كان الأسبوع التالي وقتا غريبا محموما. لم أشأ أن أصارح نفسي بأنّي لم أكن محبوبا، وتجنبت أبي. أما «زينايدا» فلم أستطع تجنبها، رغم أني كنت أحترق في حضرتها كأنّي في نار!

بعد جولة طويلة ذات يوم، عدت للغداء، فعلمت أني سأتناول غدائي وحيدا؛ لأن أبي قد رحل، وأمي معتلة الصحة، ولا تريد أن تطعم شيئا.

وسرعان ما عرفت من خادم صغير تربطني به صداقة، أن نزاعا رهيبا حدث بين أبي وأمي، وعلمت أن أمي اتهمت أبي بالخيانة، وبأنه على صلة وثيقة بالفتاة الصغيرة في المسكن المجاور، وأشارت إلى قرض يبدو أن أبي أقرضه للأميرة العجوز، وكان السبب في كل ذلك خطاب مجهول، لم يعلم أحد من كتبه.

***

في اليوم التالي، أعلنت أمي رغبتها في العودة إلى المدينة. دخل أبي في الصباح إلى حجرة نومها، ولبث معها على انفراد وقتا طويلا، فكفت أمي عن البكاء واستعادت هدوءها.

تجوّلت اليوم بطوله في الخارج، لكني لم أدخل الحديقة، ولم ألق نظرة واحدة على مسكنها. وفي المساء، جذب أبي الكونت «مالفسكي» من ذراعه، وأخبره بأنه لا يحبّ خطّه، ولا تشرفه زيارته، وأنه إذا جاء مرة أخرى فسيقذف به من النافذة، فتراجع الكونت إلى الوراء وغاب عن الأنظار!

بدأنا نستعد للعودة إلى مسكننا في المدينة. كان من الواضح أن أبي نجح في إقناع أمي بألاّ تثير فضيحة، فتم تدارك الأمر بهدوء، بل إنّ أمي بعثت بتحياتها للأميرة العجوز، وأبدت أسفها إذ لم تتمكن من زيارتها قبل الرحيل.

وقدّر لي أن ألمح وجه «زينايدا» في نافذة المسكن المجاور، فلم أستطع أن أكبح نفسي. لم أستطع أن أفارقها دون أن أحييها تحية وداع أخيرة،

فاعتذرت لي راجية ألا أذكرها بسوء فاعترفت لها ثانية بحبي وأنني لن أنساها ما حييت!

فاتجهت إلي بحركة مسرعة، وبسطت ذراعيها، وحضنت رأسي، وقبلتني قبلة حارة ملتهبة، ذقت حلاوتها مشغوفا.

عدنا إلى المدينة، وبدأ جرحي يلتئم ببطء. وذات يوم قابلت «الوشين» الذي كان عزيزا لديّ، فإذا به يقول لي إنني أصبحت رجلا لا جروا مدللا.

***

اعتاد أبي أن يخرج كل يوم على صهوة جواده. رأيته يوما معتدل المزاج، وهو يتأهب للركوب، فأخذت أتوسل إليه أن يصطحبني معه، فوافق رغم أنه لم يكن مقتنعا أنني يمكن أن أجاريه بمهري.

هكذا انطلقنا معا، حتى أدرك حصاني التعب، وعندما بلغنا كومة عالية من خشب قديم قرب ضفة نهر، أسلم إليّ فرسه، وطلب مني أن أنتظره، وعرج إلى شارع صغير، وغاب عن بصري.

طال تأخّر والدي، فخطوت بضع خطوات في الاتجاه الذي غاب فيه، ودرت عند الناصية. وفي ذلك الشارع على بعد أربعين خطوة مني، كان هناك منزل خشبي. رأيت أبي واقفا وظهره إليّ، بينما جلست في المنزل امرأة تلبس السواد، تكاد تخفيها إحدى الستائر، وسرعان ما اكتشفت أنها «زينايدا»!

ظللت مسمّرا في مكاني، يتملكني شعور أقوى من الفضول، أقوى من الغيرة، بل وأقوى من الخوف. كانت تبتسم في خضوع. عندئذ أيقنت أن

حبي، بكل ما فيه من أفراح وآلام، شيء تافه صبياني يستحق الرثاء، إذا قيس بهذا الشيء الآخر الذي يقصر دونه الخيال!

***

دخلت الجامعة بعد شهرين، وبعد ذلك بستة أشهر، أصيب أبي بصدمة مفاجئة ومات في الثانية والأربعين من عمره في بطرسبرج التي كنّا قد رحلنا إليها، لكنه تلقى خطابا قبل وفاته بأيام قلائل أدّى به إلى هياج شديد. ووجدت أنه قد كتب لي خطابا بالفرنسية حذرني فيه من حبّ المرأة ومن تلك السعادة وذلك السمّ..

مضت أربع سنوات، بعد أن تركت الجامعة. كنت أهيم على وجهي، وذات مساء جميل قابلت «ميدانوف» بالمسرح. كان قد تزوّج والتحق بخدمة الحكومة، فأخبرني بأن مدام «دولسكي» هنا، فاستفسرت منه عمّن يقصد، فأخبرني أنها الأميرة الصغيرة «زاسكين» التي كنّا جميعا نحبّها، جاءت إلى بطرسبرج منذ أيام قلائل، وسترحل إلى الخارج. وعرفت أن زوجها فتى رائع ذو أملاك، وأنها استطاعت بذكائها أن تحقق تلك الزيجة، ودعاني إلى زيارتها.

ثارت في نفسي ذكريات قديمة، وعزمت على الذهاب لأرى حبيبتي السابقة، لكن حالت دون ذلك مشاغل عديدة. ومضى أسبوع وتلاه آخر، فلما ذهبت أخيرا إلى الفندق الذي أخبرني «ميدانوف» أنها نزلت به، وسألت عن مدام «دولسكي» ، علمت أنها ماتت منذ أربعة أيام فجأة، وهي تضع طفلا!

24 ساعة في حياة امرأة

أقمت في بانسيون صغير بساحل الـ«ريڤيرا» بفرنسا، قبل الحرب العالمية الثانية بعشر سنوات. كان البانسيون يبدو من الخارج على شكل ڤيللا لكنه في حقيقة الأمر كان ملحقا لفندق كبير. كنا سبعة أفراد نقيم هناك: زوجان ألمانيان يتنزهان ويلتقطان صورا، دانمركي بدين يواظب على الصيد، سيدة «س» إنجليزية راقية المظهر بدت كرئيسة شرف لطاولتنا بحضورها الأرستقراطي الرزين، وزوجان إيطاليان يمارسان رياضة الجري إلى مدينة «مونت كارلو» القريبة. وكنا بحكم إقامتنا في البانسيون نجتمع معا سواء أثناء تناول الطعام أو في جلسات الحوار، ومن بعيد كنّا نتابع مجريات ما يحدث في الفندق الكبير.

فجأة وصل إلى الفندق الكبير شاب فرنسي يدعي «لافوس»، يجسّد وسامة الرجال وأناقتهم. كان شخصية اجتماعية سرعان ما اكتسبت إعجاب نزلاء الفندق الذين كان غالبيتهم من المسنين ذوي الصحة المتذبذبة. رأيناه بعد ساعتين من وصوله يلعب كرة المضرب مع ابنتي صاحب مصنع ثري بدين من ليون، هما «آنيت» ذات الاثني عشر عاما، و«بلانش» ابنة الستة عشر عاما. وكانت أمهما «هنرييت» النحيلة الرقيقة



المنطوية على نفسها، تتابع مبتسمة ذلك الدلع الذي كانت ابنتاها تغازلان به الشاب الغريب، بينما كان الزوج يلعب دومينو مع صديق له.

كان «لافوس» ينشر عطر وجوده الجذاب بين مختلف نزلاء الفندق دون تمييز. وأمضى ساعة بعد الغداء مع السيدة «هنرييت» على انفراد في الحديقة تناولا فيها قهوة وساعتين بعد العصر في محادثة أخرى على الشرفة.

وفي المساء بدأت بوادر مأساة في الظهور، حين أعلن أولا عن غياب السيدة «هنرييت» وعدم عودتها من تمشيتها المسائية، وسرعان ما أسفرت المأساة عن نفسها حين أعلن الزوج أنها هجرته إلى غير عودة. وتحوّلت المأساة إلى فضيحة لأن السيدة هنرييت لم ترحل بمفردها ولكن مع الشاب الفرنسي «لافوس». عندئذ لاكت ألسنتنا – نحن نزلاء البانسيون السبعة – قضية السيدة «هنرييت» التي استبدلت زوجها الريفي البدين بشاب وسيم. لكن ما أثار دهشتنا هو أنه لم يسبق لهذه السيدة ولا أيٍّ من أفراد أسرتها أن شاهد ذلك الشاب من قبل، فهل كان يكفي مجرّد محادثة على الشرفة لمدة ساعتين وجلسة مع تناول القهوة لمدة ساعة في الحديقة لدفع امرأة في الثالثة والثلاثين من عمرها ذات مكانة اجتماعية لا ريب فيها، للانفصال عن زوجها وابنتيها ليلا والاندفاع وراء شاب أنيق غريب عنها تماما؟!

اختلفنا أثناء تناول تلك القضية بالنقاش. انحاز غالبيتنا إلى الجانب الأخلاقي باعتبارها مجرّد خيانة غادرة لعاشقين، لكنني كنت الوحيد الذي كان لي رأي مخالف أوضحته بأنه ربّما كان ماحدث محصلة زواج فاشل تراكمت فيه سنوات طويلة من الخيبة والسأم هيّأت تلك الزوجة لتصبح فريسة لأيّ رجل جسور. واحتدّ الخلاف وارتفعت حدّة النقاش لولا

تدخل السيدة «س»، رئيسة الشرف لطاولتنا حين أوضحت أنه لا يمكن تبرئة هذا السلوك الطائش الخطير أو قبوله، ففسّرت موقفي بأنني أكنّ احترامًا خاصا للسيدة «هنرييت» لأنها مشت خلف إرادتها بجسارة. وتصاعد النقاش حتى سألتني السيدة «س» وهل تقدّم امرأة كهذه لزوجتك لو كنت متزوجا؟ وعندما أجبت بالإيجاب، صمتت غارقة في لجة تفكير عميق ثم تمتمت: «ربّما كنت أنا أيضا أفعل ذلك».

***

في أعقاب ذلك، ظهر هناك برود واضح في التعامل مع خمسة من مجموعتنا قابلته معاملة متميّزة من السيدة «س» التي راحت تقتنص أيّة فرصة للحوار معي ودفع عجلته باتجاه نفس حكاية السيدة «هنرييت» سعيدة بإدانتها مسرورة في ذات الوقت بتعاطفي مع تلك المرأة. استمرّ ذلك بضعة أيام، لكن عندما أخبرتها بأمر سفري في اليوم التالي اضطربت وأخبرتني أنها تفضّل أن تعبّر عمّا تريد كتابة. وقد وصلتني رسالة فعلا مع حلول المساء مكتوبة بخط واضح تستأذنني أن تحكي لي مرحلة من حياتها حول أمر ظلّ يشغلها طوال عشرين عاما، فكتبت لها مشجعا، فردت بتحديد موعد في غرفتها بعد العشاء، دون أن تخشى أي ظنّ لفعلها لأنّها في السابعة والستين من عمرها.

أخبرتني في الموعد المنتظر أن المرحلة التي ستحدثني عنها لا تتعدى أربعا وعشرين ساعة من عمرها الذي يناهز السابعة والستين عاما. كانت السيدة «س» من أسرة اسكتلندية ثرية ورثت مصانع وضياعًا وعاشت حياة النبلاء. تعرّفت وهي في الثامنة عشرة من عمرها على زوجها، وتزوّجا

وعاشا تارة في عزبها وتارة أخرى مرتحلين سائحين بين عواصم العالم، ورزقا بطفلين، وكبر ولداها والتحق أكبرهما بوظيفة واستقل بحياته والتحق الآخر بالمدرسة الثانوية. مات زوجها وهي في الأربعين من عمرها، فكان موته نقطة تحول في حياتها بعد أن أصبحت وحيدة، وبدأت تتجوّل بملابس الحداد متحاشية نظرات الشفقة المهذبة، فارتحلت إلى باريس وراحت تنتقل بين متاحفها تراودها رغبة في الخلاص من حياتها التي أثقلتها الأحزان.

وبعد ترملها بسنة، رجعت إلى «مونت كارلو» التي سبق أن اصطحبها إليها زوجها أكثر من مرّة؛ لأنه كان يحبّ التردد على صالات القمار حنينا إلى عاداته القديمة، ودخلت إلى قاعة اللعب لتمارس تجربة سبق أن أرشدها إليها زوجها عندما اشتكت ذات يوم من الضجر. كانت نصيحته تقوم على عدم النظر إطلاقا إلى أيّ وجه من وجوه المقامرين لأنّ المقامرين تعلموا خلال وقت قصير كيف يتحكمون بتعابير.وجوههم مسدلين قناعا باردا من عدم الانفعال عليها، بل ينبغي التركيز فقط على مربع طاولة القمار والنظر إلى حركة أيدي المقامرين المفتوحة والمنقبضة أو التي تتلمس أملا.

وتوقفت فعلا أمام إحدى الطاولات، لكن ما لفت نظرها يدان أمام طاولة أخرى لم يسبق أن رأت مثلهما على الإطلاق، يد يمنى ويد يسرى اشتبكت إحداهما مع الأخرى وكأنهما وحشان يلتحمان ويتعاركان بضراوة. كانتا يدين رقيقتين ، فريدتين فعلا لشخص يطفح قوّة تكثفت في أطراف أصابعه!

تحركت مسحورة إلى تلك الطاولة تتابع عن كثب مجريات الأمور، وسرعان ما ارتفعت عيناها مستطلعة وجه صاحب تلكما اليدين، فإذا هو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. راحت تحدّق فيه بكلّيتها منبهرة بما تفعله يداه كانعكاس لمشاعره. كان إذا فاز انفرجت أسارير وجهه وإذا خسر اكفهرت وانقبضت يداه. لكن تدريجيا بدأت الطاولة أمامه تخلو من فيشات وأموال الرهان وخبت بالتالي حركة يداه، عند ذلك الحدّ وتحجرت. كانت خسارته قد وصلت إلى منتهاها. نهض يجرجر أذيال الخسارة الفاجعة. لعله قامر هناك بآخر ماله، بل وربّما بحياته نفسها. وضح أنّ الموت يعلو وجه ذلك الشاب الذي مازال يضجّ بالحياة، وتولد لديها يقين أن ذلك الشاب ماضٍ إلى حتفه. وحين قدّم له الخادم سترته وساعده على ارتدائها وضع الشاب يديه في جيوبه بحثا عن قطعة نقود يمنحها إليه، لكنه لم يجد سوى الفراغ فتمتم للخادم بكلمة مسارعا إلى هبوط السلم حتى كاد يتعثر بينما نظر إليه الخادم بابتسامة احتقار.

ودون أن تدري السيدة «س» وجدت نفسها تهرول وراء ذلك الشاب في الظلام!

***

تبعت ذلك الشاب ذا الأربعة والعشرين عاما - على الأكثر - عن كثب إلى شرفة الكازينو، يلح عليها شعور فاجع بأنّه ماض إلى حتفه. ورأته ينحط هناك على مقعد متثاقلا. لم تفكر فيه إطلاقا كما يمكن لامرأة أن تفكر برجل، بل كانت اندفاعة عفوية من أجل إغاثة طفل يكاد يفقد حياته!

حاولت الاقتراب منه مرات ومرات وأن تحادثه لكنها كانت تفشل في كلّ مرة. وحين عزمت على ترك هذا الشاب البائس لمصيره، بدأت السماء تمطر بقسوة، وتكثفت غيوم فوق البحر. لكنه رغم المطر ظلّ سجين مقعده دون حراك.

رأت في تلك اللحظة عجزه وسط ذلك الوابل الغزير من المطر. أرادت فقط انتزاعه منه. كانت رغبتها أقوى منها، فاندفعت إليه وحثته على أن يتحرك معها، ولما لم يستجب أمسكت بذراعه ولم تفلته حتى احتميا في مكان جاف تحت مظلة كشك لبيع الزهور. ودار حوار متقطع عرفت منه أنه ليس له مسكن قريب، فأخبرته أنها ستجد له مأوى، واستوقفت عربة مرّت قريبا منهما، وطلبت من الحوذي أن يوصلهما إلى فندق صغير. وحين وصلا إلى الفندق حاولت أن تمنحه مالا ليحاسب الفندق لكنه رفض بإصرار. كان متعلقا بي كأنّ هاوية فغرت فاها تحته لتبتلعه، وأحسّت أن عليها أن تبذل كل ما في وسعها لمساعدته، فلم تجد مناصا من مرافقته إلى الداخل. وفجأة وجدت نفسها مع رجل غريب في غرفة غريبة في فندق غريب، لم تكن تعرف حتى اسمه!

***

صحت في اليوم التالي لتجد رجلا مجهولا نصف عار إلى جوارها على سرير الفندق الواسع. ذعرت واجتاحها رعب رهيب. وسرعان ما استولى عليها خوف ضار ومرعب من أن يفيق ذلك المجهول الذي لا تعرف اسمه وأن يبادلها الحديث، فراحت ترتدي ملابسها بعجلة حتى تهرب قبل أن يستيقظ. وفي اللحظة التي كادت ترتدي فيها قبعتها وتنصرف فكرت أن

تلقي نظرة وداع على ذلك الآخر. رأت وجها طفوليا لولد صغير يشعّ نقاء وصفاء وقد انداحت خصلات من شعره الأشقر على جبينه. كان وجها مناقضا لوجه الأمس المتقلص القسمات لرجل متهيّج حتى الموت. عندئذ اجتاحتها مشاعر غبطة وفخر؛ لأنّه لولا تدخلها لكان من الممكن العثور على هذا الشاب الرقيق الوسيم مقتولا مهشما. لقد أنقذت حياته!

هل أثارت ضجة؟ لأنه فتح عينيه، فذعرت وتراجعت للوراء ، ولم تدعه يتكلم بل سارعت بالقول بأنها ستتولى كلّ شيء، وأن عليه فقط أن يبقى في مكانه ويرتدي ثيابه وأنها ستقابله عند مدخل الكازينو وقت الظهيرة!

***

توقفت السيدة «س» لتلتقط أنفاسها، ثم استطردت موضحة أنّ حياتها لم يكن لها أي معنى منذ وفاة زوجها فلم يكن أمامها أيّ هدف، لكن إرادتها للحياة تجددت ودبّ فيها إحساس جديد بجدوى وجودها بعد أن أنيط بها مهمة إنقاذ رجل كاد يدهمه الموت.

ذهبت إلى غرفتها في الفندق وغيرت ملابسها وسحبت مالا من البنك واستعلمت من محطة القطارات عن مواعيد الانطلاق. كانت ترتب عودة الرجل إلى بلاده وإنقاذه نهائيا. وما كادت تقترب من الكازينو حتى نهض شاب عن مقعده وهبّ لاستقبالها بنفس العفوية والبراءة، ولازم تصرفاته في نفس الوقت احترام وامتنان. كان عرفانه بالجميل مشعّا قويا. ودعته إلى الغداء في مطعم صغير، وهناك أخبرها أنّه ينحدر من أسرة بولونية نمساوية عريقة وأنه كان يتهيأ للعمل في السلك الدبلوماسي، وحين نجح

في أولى اختبارات بڤيينا، صحبه عمه الذي كان يقيم عنده إلى ميدان سباق، وكان العمّ محظوظا حين فاز ثلاث مرّات على التوالي. وفي اليوم التالي تلقى الشاب مبلغا كبيرا من المال مكافأة على نجاحه، فتوجّه مباشرة إلى ميدان الخيل وراح يراهن. ومنذ تلك اللحظة فصاعدا استولى عليه جنون اللعب في أيّ مكان، ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه، وانتهى به الأمر في المرّة الأخيرة إلى سرقة زرين مرصعين بالأحجار الكريمة من خزانة عمته، رهن أحدهما مقابل مبلغ كبير من المال، وتضاعف ماله من المقامرة ثلاث مرات في تلك الأمسية، لكنه لم ينسحب وجازف وخسر كلّ شيء، فاضطر إلى رهن الزر الثاني وتوجّه إلى «مونت كارلو» لعله يربح في الروليت، لكن الحظ لم يواته فخسر كلّ شيء، لدرجة أنه لم يبق له سوى مسدسه وأربع طلقات.

كانت قد وعت من قصته تلك إغواء القمار الذي لا يقاوم في «مونت كارلو»، فأصرّت على ضرورة أن يغادر الكازينو وأن يستقل القطار في مساء اليوم نفسه مع قسم مشدد بشرفه بألا يلمس أيًا من أوراق اللعب أو يشارك في أيّة لعبة قمار بعد ذلك. ولم تكتف بذلك فقط إذ انتهزت فرصة مرورهما بكنيسة أثناء جولتهما بعربة بين أطراف المدينة فجعلته يكرر القسم أمام مذبحها. وإذا به ينحني ساحبا كلتا يديها وراح يقبلهما باحترام وتقدير. في تلك اللحظة أعطته المال من أجل السفر ومن أجل ردّ رهان الزرين، على أن يلتقيا في الساعة السابعة في بهو محطة القطار لمدة نصف ساعة قبل انطلاقه. لكنه رفض قبول المال رفضا قاطعا، ثم رضخ أخيرا إزاء إصرارها وإلحاحها على ضرورة رحيله في المساء!

***

توقفت السيدة «س» مرة أخرى، وذهبت إلى النافذة وراحت تتطلع إلى الخارج، ثم استكملت حديثها بأنها أحست بالخيبة حين رجعت إلى الفندق. خيبة من رحيل هذا الشاب دون أيّة محاولة للنظر إليها، والبقاء بقربها. رأت أنّه كان يبجلها كقديسة وأنه لم يشعر أنها امراة، رغم أنّه لو طلب منها أن تتبعه لتبعته إلى آخر الدنيا، وللطخت اسمها وأسماء أبنائها غير مكترثة بما يقوله الناس، تماما كما هربت السيدة هنرييت مع ذلك الشاب الفرنسي. عندئذ أيقنت أنها قد تفعل المستحيل كي لا تفارقه، وسرعان ما تحوّلت تلك الرغبة إلى قرار، فراحت تعد حقائبها وإذا بابنة عمّ زوجها تظهر على غير انتظار فتكون سببا في تعطيلها. وعندما اقتربت الساعة السابعة اضطرت إلى الإفلات منها دون تبرير واضح حتى تلحق بموعد القطار، لكنها وصلت والقطار على وشك الحركة ولم تستطع الدخول لأنها لم تكن قد قطعت تذكرة!

***

أحسّت بخواء شديد بداخلها حين لم يتح لها أن تراه للمرّة الأخيرة. لكنها أرادت أن تبتعث ما مضى من أحداث كي تستعيد مشاعرها الماضية مرّة أخرى. هكذا رجعت إلى الكازينو حيث جرى اللقاء الأول. راحت تبحث عن الطاولة التي كان يجلس إليها. وهناك في نفس المكان رأته جالسا. هل كانت تهلوس؟ لكن أبدا، لقد كان هو فعلا بشحمه ولحمه وقد ربح مبلغا كبيرا تكوّمت فيشاته أمامه. ومع الأسف الشديد كانت كل حركة من حركاته تغتال الصورة التي حملتها بداخلها بسذاجة. اندفعت إليه وهزته. ولما تعرّف عليها أخبرها أنه سينهي هذا الدور وينصرف. لكنه لم

يصدق كالعادة ، فكان أن رجعت إليه فهاج وغضب وأخبرها بأنها تجلب له النحس كلما تواجدت إلى جواره. ولما ناقشته صرخ في وجهها، فطلب منها مدير طاولة القمار الصمت والانصراف، فشعرت بأنّها وضيعة يكسوها الذل. وإذا بها ترى ابنة عم زوجها تنظر إليها غير مصدقة.

لم يحطمها الألم إلاّ للحظة واحدة تكفي لتلقي الصدمة. وسرعان ما استعادت زمام نفسها، وأصبحت فكرة واحدة تسيطر عليها هي فكرة الرحيل. وصلت إلى باريس ومنها إلى عدّة بلدان أخرى، حتى وصلت إلى بيت ابنها في لندن حيث فاجأتهم بوصولها. وتدريجيا تغلبت على محنتها.

وذات يوم بعد سنوات التقت في مبنى ملحق سفارة النمسا شابا بولونيا وعندما سألته عن عائلة الرجل الذي تقاسمت معه السرير ذات ليلة أجابها بأنّه أحد أفرادها، وهو ابن عمه تحديدا الذي انتحر منذ أكثر من عشر سنوات في «مونت كارلو»!

***

توقفت السيدة «س» موضحة بأنها وجدت في دفاعي عن السيدة «هنرييت» ملاذا للاعتراف والتخلص من ذلك العبء الثقيل. عندئذ نهضت فورا محاولا أن أقول بضع كلمات، لكنها أشارت لي بالتوقف عن تلك المحاولة شاكرة لي حسن إنصاتي، ومدّت لي يدها مودعة فانحنيت مقبلا يدها التي كانت ترتجف!

موت في فينيسيا

خرج العجوز «جوستاف آشنباخ» عصر يوم من أيام الربيع من سنة بدت فيها ملامح خطر نشوب حرب عالمية أولى في القارة الأوربية وشيكة الوقوع. كان شديد التوتر والانفعال من ضرورة الاحتراس في هذه الآونة إلى أبعد حد، واتخاذ احتياطات صعبة محفوفة بالخطر. كان قد أنجز عمل الفترة الصباحية من الكتابة وفكّر في الخروج وحيدا للتمشية على قدميه تسرية عن نفسه وتجديدا لفكره. كان يمتلك منزلا في «ميونيخ» خصصه لعمله الأدبي الذي بزغت فيه موهبته مبكرا منذ سنوات الدراسة الثانوية، وترسّخت من خلال تنظيم الوقت والعمل الجاد. وبعد مرور عشر سنوات تعلم أن تصبح صورته التي يقدمها إلى العالم من حوله تتشكل مما يدوّنه وهو جالس إلى مكتبه. كما استطاع أن يحلّ المعادلة الصعبة التي يواجهها أيّ فنان، وهي أن يصبح جادا وجماهيريا في آن واحد. وكانت أقصى أمنياته أن يحيا عمرا طويلا؛ لأنه كان يعتقد منذ وقت بعيد أن الفنان هو وحده الذي يمكنه أن يكون مثمرا في كلّ مراحل حياته. وحين بلغ الخمسين أصبحت لديه قناعة أن هذا النوع من البشر ينجز أفضل ما لديه مبكرا ونادرا ما يستطيع أن يعمّر طويلا. وكان قد أنجز عددا من الكتب جلبت له شهرة كبيرة داخل ألمانيا وخارجها، لكنه هو شخصيا لم يكن سعيدا بذلك، فبينما كانت الدولة والعالم يضعانه موضع اعتبار وتقدير كان يراوده شعور داخلي

بأنّ أعماله الأخيرة خلت من شعلة الخيال الذي كان إحدى علاماته المميّزة.

لاحظ أثناء نزهته في الحديقة الإنجليزية أنّ الطقس بدأ أخيرا في التحسّن، فمضى يمشي عبر طرقات هادئة، لكنه أحسّ بالخوف من قضاء الصيف داخل الوطن في بيته الريفي الصغير وحيدا مع خادمة تعدّ له الطعام ورجل يقوم على خدمته. كان يخشى رؤية القمم المعهودة للجبال وحوائط الدار التي ستعزله مرّة أخرى مع مشاعر ثقيلة بعدم رضا حول بطء حركة الحياة. عندئذ، ألحت عليه رغبة فى التغيير، رغبة جارفة للمشاهد الجديدة والبعيدة والسعي الدءوب للتحرر والخلاص والنسيان، حتى بدا أنّ تغيير الجوّ ضرورة. كان في حاجة إلى شيء من الارتجال وعدم الاكتراث بمرور الأيام واستنشاق هواء جديد في مكان بعيد، ودفع دماء جديدة إلى جسده كي يصبح الصيف محتملا ومثمرا. إذن، ليس أمامه سوى القيام برحلة إلى بلدة أجنبية متحررة من الروابط في جنوب أوروبا يسهل الوصول إليها، فعكف على فحص خريطة الخطوط الملاحية والرحلات البحرية، وفجأة برزت المدينة التي يريد الذهاب إليها بشكل مدهش ومقنع في آن واحد. «ڤينيسيا». نعم، كانت «ڤينيسيا» مدينة رائعة، لا يقاوم سحرها بالنسبة للمثقفين من ناحية تاريخها العريق وجاذبيتها المعاصرة. وقد أحسّ بسعادة بالغة لاتخاذه هذا القرار.

***

ولد «جوستاف آشنباخ» في مدينة «ل» التي تقع على حدود مقاطعة «شيلزين» بألمانيا. وهو ابن موظف كبير في وزارة العدل. كان زواج أبيه

وأمه قد جمع بين أسرتين امتهنت إحداهما من ناحية الأب الوظائف الرسمية العامة واتسمت بالحصافة والدقة، وورثت الأم عن جدّها المايسترو البوهيمي غرائز متوثبة متقدة غامضة.

أما حياته الزوجية التي بدأت منذ سن مبكرة مع فتاة من أسرة متعلمة راقية، فقد انتهت بعد سنوات قليلة لسوء حظه بسبب موت هذه الزوجة الشابة التي أنجبت له بنتا، سرعان ما تزوّجت عندما كبرت. ولعله كان ينشد ولدا، لكن موت زوجته حرمه من الابن إلى الأبد.

***

لم تكن هي المرّة الأولى التي يذهب فيها إلى «ڤينيسيا». كانت المدينة تستقبله دائما في صورة براقة مضيئة، لكن البحر والسماء ظلا هذه المرّة ملبدين بالغيوم، لونهما رصاصي، وكان هناك مطر يتساقط من بين الضباب بين حين وآخر لدرجة أنه تصوّر أنه في طريقه إلى مدينة أخرى غير تلك التي اعتاد أن يزورها.

كما أحسّ آشنباخ بالدوار وهو يرى رجلا عجوزا لا يتمالك نفسه من تأثير الشراب، وحين أمعن النظر إليه رأى صورة العالم تميل ميلا خفيفا يُفقد الأشياء منظورها المعتاد تدريجيا، فتبدو أبعادها مختلة عجيبة ومخيفة.

وتذكّر مشاعره عندما كان يركب جندولا في «ڤينيسيا» سواء أكان ذلك للمرة الأولى أم عندما يعود إليها بعد غيبة طويلة، حين يذكّره لون الجندول الأسود الذي يشبه صندوق الموتى بالموت نفسه والنعوش والجنازات

القاتمة والرحلة الأخيرة الصامتة فتستولي عليه قشعريرة خاطفة ورهبة غامضة وإحساس مقبض!

***

وصل إلى قسم الاستقبال بفندق «ليدو»، حيث سجل اسمه وتمت إجراءات استقباله وخدمته على أكمل وجه. تناول الشاي في الشرفة المطلة على البحر، ثم هبط من الفندق ليتمشى على كورنيش الميناء. وعند عودته بدا أن الوقت قد حان لوجبة العشاء، فغيّر ملابسه ببطء ودقة، ووصل إلى قاعة الطعام مبكرا بعض الشيء، حيث تجمع عدد كبير من النزلاء، غرباء يسود فيما بينهم شعور باللامبالاة، لم يكن يجمع بينهم سوى انتظار الطعام. ومضى يراقب هذا الجمع الذي يختلف بشكل يبعث في نفسه الراحة، وأحسّ بجو من الرحابة والتسامح في الأفق المتسع الذي يضم الجميع. كان السلافيون يمثلون الجزء الأكبر من الحاضرين، وبالقرب منه تماما كان حديث يدور باللغة البولندية بين أفراد أسرة بولندية. كانوا مجموعة من الصغار الذين وصلوا بالكاد إلى سن البلوغ تحت إشراف أم ومربية: ثلاث فتيات صغيرات تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، وغلام طويل الشعر ربّما يكون في الرابعة عشرة. وقد دهش «آشنباخ» وهو يلاحظ جمال الغلام المكتمل. كانت كلّ ملامحه تعطي انطباعا بالرزانة الربانية الساحرة، صورة فريدة لن يرى الإنسان لها مثيلا في أيّ مكان آخر. وعرف من خلال السمع أن اسمه «تاذزيو». أحسّ «آشنباخ» بالراحة وهو يستمتع بالجمال الماثل أمام عينيه. كان من الواضح أن الرقة والتدليل عنصران يميّزان وجوده، وأن هناك من يحرص على ألا يقترب المقص من

شعره الجميل، حتى استرخت خصلات على الجبين وفوق الأذنين وامتدت بعمق خلف رقبته أيضا. كان يلبس زيّ بحّار إنجليزي تضيق أكمامه الواسعة كلما اتجهت إلى أسفل لتحيط برسغيه الرقيقين، ممّا جعله يبدو كأنّه كائن من كائنات الجنة، وهو يجلس مسترخيا في جلسة تبرز جمال الاسترخاء، بلا أدنى قدر من التكلف، الذي كان مألوفا بالنسبة لشقيقاته. وكان من الواضح أن الأم موجودة معهن وهي التي ترعاهن هنا، وأنها لم تفكّر مرّة واحدة أن تطبق على الغلام نفس قواعد التنشئة الصارمة التي ظهرت بوضوح على هيئة الفتيات، بل كان من الواضح أنّ الرقة والتدليل عنصران يميزان تربيته.

كانت جاذبيته لـ"آشنباخ» تتزايد حتى أنه اندهش مرّة أخرى وهو يتطلع إلى وجه الغلام من زاوية جانبية. عندئذ تداعت تأملاته «جميل!. جميل!». هكذا فكّر «آشنباخ» بطريقة الفنانين الباردة عند استحسان عمل فريد لإخفاء افتتانهم به، واستمر تفكيره في أنّ ما سيستبقيه حقا في هذه المدينة ليس الشاطئ والبحر فقط بل إنه سيبقى في هذه المدينة طالما بقي الغلام.

وفي صباح اليوم التالي بدا التمييز في التربية في مظهر آخر، حين جاءت الأم والفتيات وحدهن إلى المطعم دون الغلام. ابتسم «آشنباخ» بعد أن استنتج أنّ البحّار الصغير يستأثر بحق استثنائي للاستمتاع بمزيد من النوم اللذيذ مقارنة بالبنات.

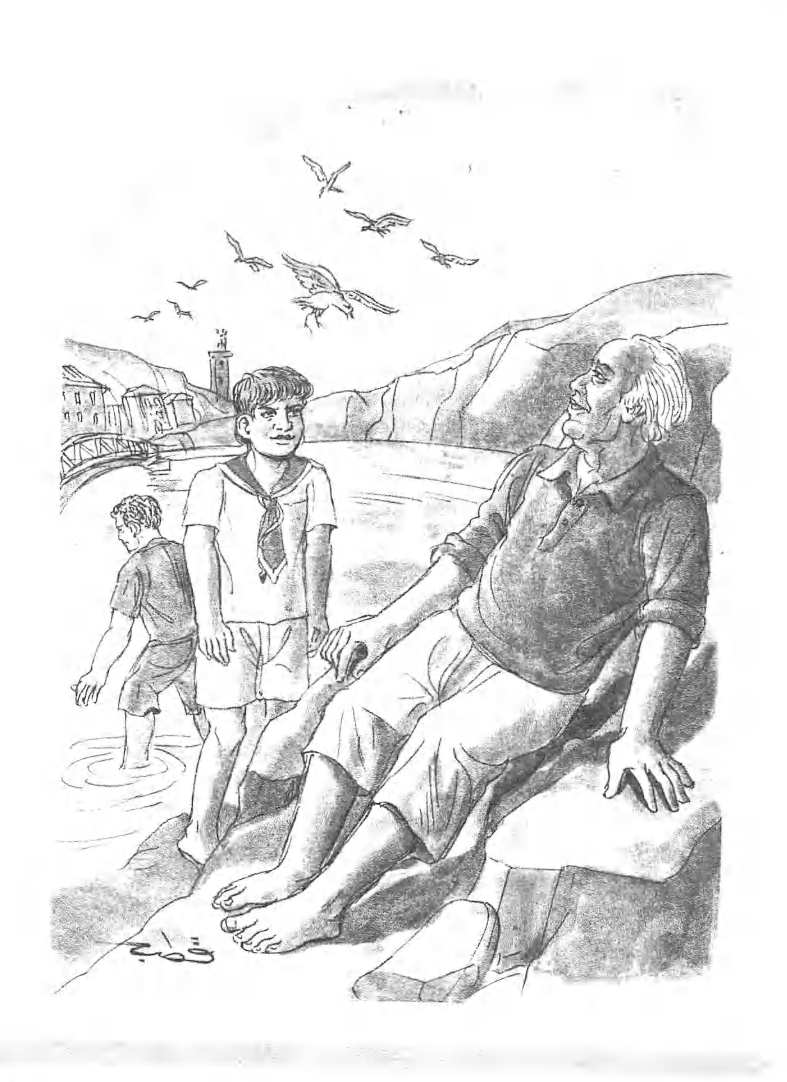
وفي مرّة أخرى والعجوز جالس على الشاطئ مستغرقا في تأملاته، قطعت فجأة خط الأفق الممتد أمامه عبر الشاطئ خطى إنسان يمشي

بمحاذاة البحر، وعندما حوّل نظراته عن الأفق اللانهائي، رأى أن العابر أمامه هو الغلام الجميل. وبعد أن سبح «تادزيو» في البحر، خرج بناء على استدعاء من أسرته. كان منظر هذا الكائن الحيّ عذريا نقيّا فريدًا بخصلات شعره المنسابة، جميلا كأنه إله صغير خرج من أعماق البحر والسماء، متفوّقا على عناصر الطبيعة ومتجاوزا لها!

انتقل آشنباخ في يوم تال إلى الشاطئ، وأمسك بين يديه كتابا يقرأ بعض صفحاته ثم ينصرف إلى مراقبة الغلام ببصره أنّى ذهب. تخيّل أنه جالس في هذا المكان من أجل حماية الغلام المسترخي فوق الرمال طلبا للراحة. عندئذ تحرّك في قلبه شعور بالمحبة الأبوية، نوع من عاطفة يلهمها صاحب الجمال لمبدع كرّس نفسه روحيا للتعبير عن سرّ الجمال.

وتدريجيا بدأ الغلام يبادله النظرات. ليست هناك بين البشر علاقة أشد غرابة وحساسية من تلك التي تحدث بين العيون فقط، بين اثنين يرى كلّ منهما الآخر يوميا، بل كلّ ساعة، وينظر كلّ منهما إلى الآخر بإمعان، ومع ذلك يبدو كلّ منهما غريبا عن الآخر، لا يتبادلان تحية أو كلمة بسبب قيود الآداب الاجتماعية أو نتيجة توهّم ذاتي فرضته عليهما ظروف خارجية.

وذات صباح أتيحت له فرصة للتحدّث مع الغلام وهو في طريقه بمفرده إلى البحر، لكنه فوّت الفرصة. كانت لديه إمكانية أن يصبح في حالة جيّدة مفرحة تؤدي إلى صحوة شافية. لكن ربّما لم يكن العجوز يرغب في تلك الصحوة الشافية لأنّ الوهم شيء عزيز لديه!



تصوّر في تلك اللحظة أنه انتقل من هذا العالم إلى فردوس على حدود أرض بعيدة أتيحت للناس فيها حياة هادئة بلا جليد ولا شتاء ولا عاصفة ولا مطر منهمر، بل يتصاعد جوّ نقي لطيف على الدوام، وتمضي الأيام في هدوء روحاني بلا معاناة ولا صراع، وليس هناك سوى الشمس والاحتفال بعيدها المقدس!

***

اجتاحت مدينة «ڤينيسيا» في تلك الفترة رائحة عفنة تؤثر على الصحة. بدأ الأمر عندما فتح نافذة غرفته ذات يوم فأحس بالرائحة. اعتقد أنها رائحة مياه راكدة في الميناء، وداهمه إحساس بالتأفف ففكّر في تلك اللحظة أن يرحل عن المدينة. ثم تصاعد الأمر وهو يتمشى في بعض شوارع جانبية، وكلما أمعن في المشي زاد عذابه من تلك الرائحة. تنفس متألما، ولم تعد عيناه قادرتين على الانفتاح والانغلاق، أصبح صدره مكتوما، وأحسّ أنّه محموم. فأسرع هاربا إلى الشوارع المكتظة بالناس، فأصابته رائحة قنوات مائية بالغثيان؛ مما جعله يتنفس بمعاناة أليمة. وحين وصل إلى ميادين هادئة ارتاح قليلا على حافة نافورة. جفف جبينه واتخذ قرارا بأن يرحل عن المدينة، بعد أن أصبح واضحا أن هذا المناخ يضرّ بصحته إلى أبعد حد.

وخلال رحلة القارب إلى محطة القطار، بعد أن أنهى حسابه بالفندق، داخله تردد لسابق ارتباطه بڤينيسيا. وتساءل عمّا إذا كان قد اتخذ قرارا صائبا. وسرعان ما شعر بألم حقيقي وأنه وقع في مأزق روحي شديد المرارة إلى الحدّ الذي جعل دموعا تطفر من عينيه مرارا؛ لأنّ هذه الزيارة ستكون

زيارته الأخيرة لهذه المدينة التي أصابته بالمرض، وسيكون ارتحاله عنها هذه المرّة دون عودة.

وحين استفسر في محطة القطار، من موظف الفندق عن حقيبته وجد أنها أرسلت إلى اتجاه خاطئ تماما مع منقولات أخرى إلى مكتب نقل البضائع بفندق «اكسيلسيور»، وهو ما اضطره أن يعود ثانية مجبرا إلى الفندق لينتظر هناك حتى يسترد حقيبته. وبدا كأنّ القدر تدخل ليعيده ثانية في نفس الساعة إلى المدينة ليراها مرّة أخرى.

جلس في منتصف النهار مسترخيا على كرسي في مواجهة نافذة تطلّ على البحر، حيث لمح «تادزيو» قادما عبر حاجز الشاطئ بمحاذاة الممرات الخشبية المؤدية إلى الفندق. تعرّف عليه فورا، وأحسّ بالبهجة وشعر بألم كامن في روحه، وتحقق من أن الوداع أصبح أمرا بالغ الصعوبة.

انتظر يومين حتى رجعت إليه حقيبته واطمأن إلى محتوياتها لكن رأيه كان قد استقر على البقاء في «ڤينيسيا».

***

رأى «آشنباخ» «تادزيو» بشكل دائم تقريبا، فالمساحة المحدودة التي كانا يتحركان فيها ونظام الحياة المتبع في ذلك المكان جعلا الغلام الجميل بالقرب منه باستمرار. رآه ولاقاه في كلّ مكان: في قاعات الفندق السفلية، في الرحلات المائية إلى المدينة والعكس، عند الآثار الرائعة في الميادين، وأثناء تحركاته هنا وهناك على الطرق والمعابر. لكن الفترة الصباحية بشكل خاص هي التي وهبته فرصا متكررة للذهاب بانتظام إلى الشاطئ ليتأمل

ويدرس هذه الظاهرة الجميلة. نعم، كم جعل هذا الارتباط المحظوظ إقامته محببة، وكان سببا في ارتياحه ورضائه وامتلائه بالسرور.

كان منطقيا مع هذه العودة وهذا الجوار أن يزداد تأمل «آشنباخ» للغلام فعرف بسرعة كلّ خط ووضع لهذا الجسد البديع الذي يعرض نفسه بحريّة تامة، وسرعان ما تحوّل تأمله تلقائيا وفق ما تعوّد عليه إلى محاولة لتفهّم ما يجري واستيعاب ما يرى، مفجرا لديه رغبة في التعبير عن حالتة الراهنة والكتابة عن بنية هذا الغلام واتخاذها مادة لعمله مرحبا فرحا باكتشاف كل سرّ من أسرار جماله. وسرعان ما عاود تأمل هذا الجسم المثالي الغضّ الذي أبدعته القدرة الإلهية التي نجحت في أن تخلق نموذجا بمثل هذا الاكتمال. عندئذ تذكّر كيف أن تلك المشيئة ذاتها سبق أن مارست عملها في نفسه أثناء امتلائه بالمعاناة وهو يصوغ عمله الأدبي من كتلة لغوية رخامية في شكل فني سبق أن رآه بعين خياله. وأخيرا كتب مقالا صغيرا عن جمال «تادزيو» في صفحة ونصف صفحة بلغة نثرية منتقاة، فيها من الطهارة والنبل والمشاعر الحيّة ما سوف يثير إعجاب الكثيرين، فمن المؤكد حقا أن العالم لا يرى العمل الجميل إلا من خلال الأصل الذي انبثق منه، ولا يعرف ملابساته ودوافعه؛ لأنّ معرفة الينابيع التي تدفق منها عطاء الفنان كثيرا ما تكون مضللة بما يعيق تأثيرها المنشود!

حدث تحوّل حين أحسّ الغلام بنظرات «آشنباخ»، وبدا كأنّ نوعا ما من تعارف قد حدث بالضرورة، وتحققت غاية سعادة «آشنباخ» حين ابتسم له «تادزيو» ابتسامة خلابة، مليئة بالثقة، وسافرة كابتسامة نرسيس حين انحنى فوق الماء ليرى وجهه. كانت ابتسامة عميقة ساحرة جذابة.

***

لاحظ «آشنباخ» في الأسبوع الرابع من إقامته في فندق «ليدو» ظواهر ملفتة في الحياة المحيطة به، كان أولها تناقص عدد السياح رغم أن تلك الفترة تعتبر ذروة موسم السياحة كل عام. كما سمع ذات يوم عندما كان عند الحلاق شيئا يكاد يكون مذهلا من أن أسرة ألمانية غادرت الفندق بعد إقامة قصيرة، ثم سأله الحلاق فجأة عن مبرر بقائه وعمّا إذا كان ذلك يعني عدم خوفه من الوباء. وعندما كرر «آشنباخ» كلمة الوباء صمت الحلاق وتظاهر بالانشغال.

راح «آشنباخ» يتصفح الصحف الألمانية والمحلية بحثا عن أخبار الوباء، كما استفسر من مدير الفندق عن مبرر إجراءات تعقيم ڤينيسيا، فأجابه المدير بمكر بأنها إجراءات تتخذها الشرطة للمحافظة على الجوّ العام في حالة صحية.

من ناحية أخرى تفاقم إحساس «آشنباخ» بفساد هواء المدينة، وراح يستقصي الأسرار الكامنة وراء هذا الخطر، حتى اكتشف بنفسه حقيقة الوباء من الصحف الألمانية التي نشرت حكاية رجل جاء من النمسا ليقضي بضعة أيام في إجازة بڤينيسيا فأصابه الوباء ومات، وأعيدت جثته إلى بلدته الصغيرة بألمانيا. كما أن حرارة الصيف التي جاءت مبكرة عن موعدها السنوي أدفأت مياه القنوات وجعلتها ملائمة لانتشار الوباء. وقد أدّى تخاذل وسلبية موقف سلطات المدينة المحلية إلى أن يستفحل أمر الوباء ويستشري وهي تحاول أن تخفي أمره حفاظا على استمرار الموسم السياحي.

***

وبدت هناك دلائل خطر حين أصبح أمره مع الغلام لافتا للنظر، فقد لاحظ «آشنباخ» عدّة مرات والدم يكاد يتجمد في عروقه أنهم كانوا يستدعون «تادزيو» كلما وجدوه بالقرب منه على الشاطئ أو في بهو الفندق أو في «سان ماركو»؛ ليحافظوا عليه بعيدا عنه بطريقة مهينة للغاية؛ ممّا جعل كبرياءه يترنح في صنوف من العذاب لم يعرفها من قبل، ومنعه إحساس بالذنب من مواجهة نفسه.

لكن ذلك أحدث تطوّرا عكسيا بالنسبة لـ«آشنباخ» بحيث لم يعد يترك فرصة للاقتراب من الجميل ورؤيته إلا واقتنصها، وراح يبحث عنه، ويلاحقه، ويتابعه متخفيا إلى أيّ مكان يذهب إليه مع أسرته. وسرعان ما طاردته أسئلة رهيبة بإلحاح غير مسبوق بعد أن تكشف له زيف موقفه، فتساءل كيف يكون ذلك الفنان مربيا صالحا بينما هو يتمادى في غيّه متجها بطبيعته إلى الهاوية؟ وسرعان ما واجه ذاته بأنه من الآن فصاعدا سوف يكون سعيه الوحيد من أجل الجمال، وهو ما يعني ببساطة معيارا جديدا للدقة، والتحرر!

وبعد بضعة أيام أحس آشنباخ أنه مريض. وحين تيقن من وجود خطر الوباء فعلا، فكّر في التوجّه إلى أم «تادزيو» ناصحا ومقدّما مشورة تحذيرية حجبها عنه الآخرون لمصلحتهم الشخصية، وذلك بأن ترحل على الفور ومعها «تادزيو» وبناتها لأن ڤينيسيا وقعت في قبضة الوباء. لكنه أدرك أنه منتش نتيجة اشتراكه في معرفة حقيقة ما يحدث واشتراكه في الصمت، مثلما ينتشي العقل المرهق بقدر قليل من النبيذ. واكتشف في صالة الفندق أن الأسرة البولندية تستعد للرحيل. تلقى الخبر مثلما يتلقى الإنسان خبرا غير

مرغوب به. وتوجّه إلى البحر. رأى الشاطئ اليوم موحشا مهجورا كأنه الخريف.

جلس على الشاطئ مرّة أخرى متابعا عراكا بين الغلام الجميل «تادزيو» وآخر من نفس عمره انتصر فيه الآخر لينهض الغلام من عثرته منكس الرأس، ويتوجّه إلى البحر، ثم يستدير بجذعه وهو في الماء متأثرا بإحدى الذكريات وينظر إلى الشاطئ.

وكان الذي يراقب هذا المشهد جالسا هناك، مثلما جلس ذات مرة من قبل في أحد الأماكن المرتفعة مسندا جسمه إلى الخلف، والتقت عيناه للمرّة الأولى بهذه النظرة الغسقية، الرمادية.

وكان ذلك هو اللقاء الأخير لأن «آشنباخ» في أعقابه مات بهدوء!

الشريكـــان

أصبحت علاقة «جيجليون » و«بوتيس»، اللذين استأجرا فيما بينهما مزرعة تدعى «لاجازنا»، منبعا لإثارة الدهشة والحسد لأميال حولها. لم يحدث من قبل أبدا أن استمرّ أب وابنه أو حتى أخوين شريكين في استئجار مزرعة دون أن ينشأ أيّ نزاع بينهما حول أمور مالية أو حول أيّ شيء آخر خلال أحد عشر عاما كاملة حتى الآن. ناهيك عن أن الرجلين لا تربطهما آصرة دم.

نشأت أسرتاهما جنبا إلى جنب في غرفتين كبيرتين من الطابق الأرضي لمزرعة حيث كان يجرى تخزين المحاصيل الوفيرة في الأيام الخالية. كانت هاتان الغرفتان بلا نوافذ في الواجهة؛ لذلك كان الضوء الوحيد الذي يدخلهما يأتي عن طريق فتح الباب الذي يطلّ على الفناء. وكانت تلك منطقة واسعة مصنوعة بطريقة خرقاء مع حوض في الوسط يحيطها جدار مرتفع كانت قمته مغطاة بزجاج مكسور يتألق في ضوء الشمس. وقد جعلت الجدران المدهونة بالجير الأبيض على نحو أعمى المستطيل الأزرق من السماء فوق الفناء يبدو أسود اللون تقريبا.

هنا، يرى الفرد ازدهار جوّ المزرعة ومبانيها في أسراب الدجاج التي سكنتها تماما مثلما يرى الديوك الرومية والديوك الرومية المخصية والخنازير

الصغيرة، وذلك على الرغم من أن حظيرة الماشية وراء فرن الخبز عند النهاية البعيدة في الظلّ كانت خالية لبعض الوقت؛ حيث لم يكن هناك سوى زوج من البغال وحمار ومهر بدلا من الأبقار.

أغرقت الشمس الحقول بأشعتها فأظهرت أشياء مبعثرة مجففة في العراء لعدة سنوات، واختلطت في الساحة تلك الروائح القديمة بدفء السماء ورائحة عفن حبوب جافة ورائحة لاذعة من حرق قش مستخدم في الفرن. كما لو أن هناك موجة راكدة من حالة تخمّر تداخلت فيها روائح ذباب طنان طوال اليوم. ثم توارد صياح بعض الديكة أو غيرها من ديوك الفناء، من طوابق الحنطة البعيدة، وسط صمت السهول. جاء الأول ثم الثاني، وأحيانا الاثنان معا بصوتين مختلفين مجيبا للنداء. لكن جاءت هذه الغمغمة المتواصلة وهذا الصياح وحفيف الأشجار بعيدة عن هذا الواقع المزعج لتؤكد ذهول الطبيعة، التي نادرا ما بددها أيّ شيء غير عادي أكثر من تلك الأحداث اليومية الكادحة المطردة، التي نظم وتيرتها الرجلان والمهام والثيران.

وقد استجابت التربة لعمل قاصم للظهر للشريكين عاما بعد عام، وبدا أنّ زوجتيهما أيضا قد نافستا خصوبة الأرض. أراد الرجلان أبناء أكثر من أيّ شيء للعمل في الحقول. أنجبت الزوجة الأولى خمسة منهم، وهو ما فعلته الثانية أيضا. وكانت إحداهما تساعد الأخرى في الولادة بمودّة؛ لذلك لم يكن الزوج، الذي لم يكن لديه وقت لإضاعته في مثل هذه الأمور، أن يشعر بأيّ قلق أو انزعاج. وعند عودته للدار للغداء في وسط النهار أو للعشاء في المساء يجد هناك طفلا آخر ببساطة:

- ولد؟

لا تنطق كلمة أخرى، كانت هزة من الرأس هي كل تأكيد موافقتها. ونادرا ما تحدث «جيجليون». كان كلما دعت الحاجة إلى تعامل مالي ، أو مع تجار الجملة من المدينة، يدع شريكه يتولى الحديث. كان رجلا معتدلا، وإن كان صعبا، مع وجه ناعم مستدير لوحته الشمس يشبه لحم خنزير، وقد يضغط على فص أذنه منصتا، ثم يزن أقوال الرجال المدعين. وبعد ذلك قد يقول بضع كلمات لا أكثر، إذا كان ذلك ضروريا.

وقد بذل «بوتيس » المجعد الشعر، الممتلئ بالحياة، مع وميض ضاحك دائما في عينيه الزرقاوين العابثتين، قصارى جهده بغمزات وكلمات معسولة لتخفيف ضراوة شريكه. ومع ذلك، فإنّ نظرة واحدة إلى «جيجليون » الهادئ غير المطواع، لم تدع الفرصة لمالك الأرض والتاجر للتفكير فيما يفعلان مع أساليب «بوتيس » الساحرة فقط، لكنها كانت كافية للإنجاز أيضا.

كان «جيجليون » شجرة عميقة الجذور، بينما كان «بوتيس » طائرا مزقزقا بين الفروع مترنما بأغنية. لكن ما لم يكن واضحا هو ما إذا كانت الشجرة راضية بكل هذا التملق والغناء من جانب الطائر. وإذا ما سأل أيّ فرد «جيجليون » عن شعوره في هذا الشأن، كان يمدّ يده على شكل كوب خلف أذنه للدلالة على أن مهمته هي الاستماع أثناء حديث شريكه.

وقبل أن تنجب زوجة «جيجليون » بنتا بشهرين، كانت زوجة بوتيس تستعد لولادتها السادسة. كانت الولادة متوقعة في أيّ يوم. أضاء ضوء

الصباح الباحة بينما جمعت المرأتان أطباق آنية خزفية بعد أن أكل أطفالهما ملأها حساء خضروات، وألقى «جيجليون» نظرة غير واثقة على بطن زوجة شريكة الثقيلة، التي قد تخلّ بتساويهما في الثروة.

وأخيرا ذات صباح قبل شروق الشمس، بدأ مخاض المرأة الحامل. هرول «بوتيس» ليطرق باب «جيجليون». استعدت زوجته بسرعة، وتحت سماء مازالت تظللها النجوم، انطلق الرجلان يتدلى معولاهما فوق كتفيهما إلى المنحدرات البعيدة حيث كان عملهما في ذلك اليوم.

خلال ساعة، اعتقد «جيجيليون» أنه سمع ابنه الأكبر يستدعيهما من بوابة المزرعة. سأل «بوتيس» وهو على بعد بضعة ياردات:

- إنهم ينادوننا ، أليس كذلك؟
- يبدو ذلك.

أجاب «جيجليون» مكوّرا يده أمام فمه صائحا:

- آه! أوه!

انطلق «بوتيس» مسقطا معوله، مهرولا على جانب التل الحاد. تبعه «جيجليون» بأقصى سرعة.

كانت هناك جلبة بالساحة. تجمهر الأطفال خارج باب الغرفة الموارب حيث تنام أسرة «بوتيس». كانوا قد فعلوا كل ما بوسعهم لجذب كل ما يمكن جمعه من كتان هش، أغطية الأسرة، مناشف، تنورات وبلوزات زوجة «جيجليون»، التي كانت ما بين فترة وأخرى يرتجف رأسها الأشعث، ويداها المطلختان بالدم وهي تحاول الإمساك بشيء ما.



أنجبت زوجة «بوتيس» ولدا، لكنها كانت تفقد كثيرا من الدماء، ولم يكن هناك طريقة لإيقافه. يجب أن يمضي شخص ما بسرعة لاستدعاء طبيب.

عندما شاهد «بوتيس» زوجته على هذه الحالة، أصابه الهلع. كان غاضبا أكثرمنه حزينا تقريبا. لم يكن هناك خيار أمام «جيجليون» سوى جذبه إلى الخارج، رافعا جسمه إلى ظهر بغل، واضعا حبل اللجام في يدي شريكه صائحا:

- امض!

كان «بوتيس» قد أثارت حفيظته تحريكه بالقوة البدنية، فرفض أن يتزحزح، مجيبا وقد ابيض وجهه:

- وماذا إذا لم أمض؟

رجع «بوتيس» مع الطبيب بعد ثلاث ساعات. لكنه لحظة أن دخل الفناء، ورأى شريكه وزوجته وكل الأطفال في انتظاره، عرف وهو مصدوم فاقد النطق أن زوجته قد ماتت. كان ذلك هو المشهد كما تخيّله تماما. شعر بغضب عنيف وجنون يجتاحانه. التمعت عيناه المرحتان بجنون، فنزل عن البغل وتوجّه مترددا إلى غرفته، وهو يقول:

- شكلكم لا يبشر بخير.

رأى زوجته راقدة متيبسة كما الرخام، كأنه لم يبق في عروقها قطرة دم واحدة. حدّق إليها لوهلة، كما لو أنه لم يعد يتعرّف عليها. ثم توجّه إلى المرأة الميتة سائلا بلهجة ساخرة:

- ماذا فعلت؟

دخل «جيجليون » الغرفة على أطراف أصابعه مع زوجته والطبيب، ثم وضع يدا مواسية على كتف شريكه. لكن «بوتيس » أبعد يده كحيوان متنمّر وزأر، وهو يندفع إلى الفناء قائلا:

- لا تلمسني.

توافد حوله الأطفال دامعين. انحنى ولفّ ذراعيه حولهم كما لو أنه ينبغي إمساكهم ودفعهم جانبا:

- ماذا تفعلون هنا، أما زلتم أحياء؟

قال «جيجليون » من فوق عتبة الدار:

- لا تشغل بالك بأمرهم، ستعتني بهم زوجتي من الآن فصاعدا كما لو أنها أنجبت اثني عشر بدلا من ست. سترعى طفلتك الصغيرة وترعاك مثلي تماما.

مازال «بوتيس » رابضا وراء أطفاله، ملقيا نظرة على «جيجليون » ومضت كنصل سكين. بدا لـ«بوتيس » أن شريكه أراد أن يجندله بكرمه عندما لطمه القدر بهذه الضربة الظالمة. وسرعان ما فرّ «بوتيس » إلى الحقول بدون أن يلقي نظرة أخيرة على زوجته المتوفاة كما لو أنها قد خانته وأرادت أن تسقطه مذلولا مدمرا أيضا. دفع أولاده بعيدا، دفعهم بعيدا إلى الحقول. وتمدد هناك بعيدا أسفل التل تحت شجرة خروب مثل حيوان مجروح جرحا مميتا.

مكث هناك مدة يومين وليلتين. وعند لحظة معينة من الليلة الثانية سمع شريكه يناديه أولا من بعيد من أعلى التل ثم من مكان قرب الممرات التي تنتشر بين الأشجار. سمع وقع خطوات وأصوات خطى أخرى، ربّما خطى أولاده الأكبر. كتم «بوتيس» أنفاسه. وعندما تلاشت الأصوات شعر بسعادة لعدم العثور عليه. رفع عينيه، لمح القمر من خلال ثغرة بين أوراق الشجر. كان معلقا هناك في السماء، باديا كأنّه يرعاه. داخله شعور غامض، جزء منه غضب وجزء آخر خوف.

فكّر في ذلك الوقت، في العودة. كان جثمان زوجته قد نقل بعيدا بطبيعة الحال. أراده شريكه هناك ليريه طفله الرضيع ملتصقا إلى صدر زوجته «جيجليون»، وكي يريه كيف أنها ترعى اليتامى الآخرين كأمّ. إحسان. تصوّر «بوتيس» المشهد الذي ينتظره في الباحة، الأطفال وهم ينتهون من تناول حساء الخضار على ضوء مصباح النفط. وقد يقول «جيجليون»:

- ليلة سعيدة، سنمضي إلى الفراش.

وقد يغلق هو وزوجته عليهما باب غرفتهما؛ ليظل «بوتيس» وحيدا في الفناء دون زوجة مع أطفاله دون أم. أوه، لا، يا الله! لن يمنح منافسه القديم تلك الراحة.

رجع «بوتيس» إلى المزرعة في الصباح التالي عند الفجر. كان غير حليق، مجوّف الوجنتين، وحول عينيه - عيني مجنون - حلقات سوداء. أيقظ أطفاله. نصح الكبار منهم بجمع أشيائهم وتحميل البغل بها.

خرج «جيجليون » من غرفته الأخرى عندما سمع الضوضاء، ووقف هناك لحظة أو لحظتين مراقبا ما يجري. ثم سأل شريكه:

- ماذا تفعل؟

كان «بوتيس » راكعا على الأرض، وهو يربط حزمة كبيرة من الملابس. وسرعان ما انتصب واقفا على قدميه ناظرا مباشرة إلى وجه «جيجليون»، وهو يقول:

- إنني أغادر.
- الى أين تذهب؟ هل جننت؟

لم يجب «بوتيس». ركع ثانية كي يُنْهِيَ ربط الحزمة الكبيرة. تساءل «جيجليون»:

- ما السبب في كلّ هذا؟

ثم استطرد:

- أعرف أنك مذهول مهتاج، وهذا حقّك. ولكن ماذا عن كلّ تلك الأشياء الأخرى؟ أنت وأطفالك إذا بقيت...

انتصب «بوتيس » ثانية على قدميه، واضعا أصبعا على شفتيه:

- صمتا. ينبغي أن أرحل.
- لماذا؟
- دون سبب. ينبغي أن أفعل ذلك.
- هكذا تنسحب فقط دون تصفية الحسابات؟

- سنفعل ذلك في وقت لاحق. أمّا الآن فينبغي أن أرحل.

حين حمّل أثقاله على البغل والحمار اللذين يخصّانه، قال «بوتيس» لشريكه:

- اذهب وأحضر لي الرضيع.

لوّح «جيجليون» بيديه ساخطا:

- هل فقدت عقلك فعلا؟ إنّه على ثدي زوجتي. هل تريده أن يموت؟
- ليمت إذن. ينبغي أن أرحل من هنا؟

أحضر «جيجليون» الرضيع المولود حديثا متجنبا النظر إلى عينيه، وناوله إلى «بوتيس» قائلا:

- ها هو. اذهب الآن. لا أريد أن تقع عيناي عليك ثانية.

تساءل «بوتيس» ساخرا:

- أليس كذلك؟

ثم استطرد:

- كيف تراني أشعر؟

قاد «جيجليون» البغل والحمار إلى الأمام منطلقا مع أولاده الخمسة، بينما استقرّ بين ذراعيه الطفل الرضيع الذي مازالت قطرة من حليب معلقة هناك على فمه الأرجواني المثقل بالتفاصيل.

الأمريكي : سنكلير لويس

السائق المأجور

قد أجرؤ على القول بأنه ليس هناك رجل ذو شأن كبير، سواء أكان رئيس بنك أم عضو مجلس شيوخ، أم كاتب مسرح، لم يسفر عن بعض الحبّ لكلب صيد عجوز ذي مظهر مخيف يحيى في كوخ ويتعيّش بأساليب لن نهتم بتفحّصها عن قرب. (إنه حديث قاضي المحكمة الدستورية العليا. وأنا لا أتظاهر بتأييد نظرياته أو رفضها). ربّما اعتاد مرشد منطقة «مين»، أو عامل مرآب عجوز أن يحافظ على إسطبل عربات، أو لم يتوان صاحب حانة عديم الفائدة تماما، عن صيد بطات بينما كان ينبغي عليه أن يكنس طوابق حانته. لكن رجل مدينتك المغرور الكبير سيحتال للأمر؛ كي يعود ثانية لرؤيته كلّ عام، ويتسكع معه، ويفضّله سرّا على كل زعماء المدينة الطنّانين.

تلك هي، على الأقل، حقيقة كبيرة لمادة مساحات متاحة تقرأها في إعلانات روايات غربية بريّة وصوفيّة. أنا لا أعرف فلسفتها، ربّما تعني أننا نستبقي بساطة مهذبة، ليس مهمّا معها، كم نحن مرتبطين بأشياء، بمنازل، بسيارات، وزوجات غاليات. أو ربّما نرجع اللعبة بأكملها إلى الحضارة مرّة أخرى: وهو ما يعني أن لا شيء في أعماق الرجل المتحضر على ما يبدو سوى متسكّع يفضّل قمصان فانيلا، ووجنات كثّة، وأطباق قصدير صلبة، على أيّة حياة صحيّة مرتبة بادية النضج تجعلنا نعيش من أجل نسوتنا.

عندما تخرّجت من كلية الحقوق أعتقد أنني كنت مفتعلا، غبيّا، وطموحا كأغلبية الشباب. أردت الصعود اجتماعيا وماليا. أردت أن أكون مشهورا وأغشى منازل كبيرة مع رجال يروّعون عامة البشر الذين لا يرتدون ملابس تناول العشاء. وها أنت ترى، أنني لم أتعلم أن الشيء الوحيد الأكثر إملالا من عشاء مهذب هو محادثة ما بعد العشاء، عندما يهضم الضحايا العشاء، ويستجمعون قوى كافية كي يكونوا قادرين على لعب البريدج. أوه، كم كنت عجلا غرّا صغيرا. بل إنني خططت أيضا لزواج ثري. ومن ثم، تخيّل ما شعرت به، بعد أن كرّمت وأصبحت مساعد كاتب خامس عشر في مؤسسة محاماة رائعة، هي «هودجينز، هودجينز، بركمان، وتوب». لم أعيّن لإعداد ملخصات، بل لخدمة استدعاءات المثول أمام القضاء! مثل مخبر خاص رخيص! مثل موظف أجرب في مكتب مأمور الشرطة! أخبروني أنني يجب أن أبدأ بهذا الأسلوب، فمضيت بوهن على مضض إلى العمل. طردت من غرف ملابس ممثلات، وكنت أضرب ما بين وقت وآخر من خصوم كبار ساخطين. تيسّر لي أن أعرف، ومازلت أكره بشدة كلّ ركن قذر وغامض من المدينة. فكّرت بالفرار إلى بلدة موطني؛ حيث يمكنني أن أصبح محاميا كامل الأهلية في القانون. وقد ابتهجت حين أرسلوني ذات يوم إلى بلدة تدعى «نيوميليون»، تبعد ما يقرب من أربعين ميلا، وذلك لاستدعاء شخص يدعى «أوليفر ليتكينز». عمل هذا الليتكينز في الغابات الشمالية، وعرف حقائق حول اتفاقية تخوم غابة معينة. وكنّا نحتاجه كشاهد، لكنه راوغ في أداء هذه المهمة.

حين هبطت من القطار في «نيوميليون»، كان شعوري المفاجئ بقرية بسيطة حلوة قد سحق بالنظر إلى المكان، بشوارعه المتدفقة طينا، وصفوف دكاكينه التي إمّا أنها بلا لون أو مجصصة بلون بنيّ متجهّم. ورغم أن عدد سكانها قد يكون ثمانية أو تسعة آلاف ساكن، فإنّ «نيوميليون» بدت مهدا لمخيّم تنجيم. كان هناك رجل رضيّ الهيئة في محطة السكك الحديدية، مستخدم في شركة للنقل السريع. كان شخصا يقارب الأربعين، أحمر الوجه، مبتهجا، مكتنزا، مرتديا بدلة عمل وسترة من قماش قطني متين، كما لو كانا ملكا له. كان شديد القذارة، ودودا جدا، بحيث تعرف فورا أنّه محبّ للبشر، وسرعان ما ربت على ظهري تعبيرا عن مودّة نقية صافية.

قلت له:

- إنني أريد أن أجد زميلا يدعى «أوليفر ليتكينز».

- هو؟ لقد رأيته يحوم حول هذا المكان منذ ساعة ونصف. إنّه شخص يصعب الإمساك به، رغم انشغاله دائما ببعض أعمال دجل أو غيرها. ربّما يحاول الاشتراك في مباراة بوكر في خلفية دكان أطقم أفراس «فريتز بينك». انتظر، يا فتى.. بأيّ درجة من العجلة تريد تحديد مكان «ليتكينز»؟

- إنني أريد أن ألحق في العودة بقطار العصر.

كنت غامضا بشكل مؤثر، مثل مخبر سرّي على مسرح.

- سأقول لك شيئا. إنّ لديّ عربة قديمة للتأجير. سأخرج العربة، ويمكننا أن نتجوّل بها معا، حتى نجد «ليتكينز». إنني أعرف أغلب الأماكن التي يتواجد بها.

كان صريحا ودودا، وسرعان ما اجتذبني إلى دائرة مودّته لدرجة أنني توهجت بدفئها. عرفت، بطبيعة الحال، أنّه يدير عملا، لكن طيبته كانت حقيقية، وإذا تحتّم عليّ أن أدفع أجرة استئجار عربة كي نجد رجلي، فقد كنت سعيدا بأن تذهب النقود إلى هذا الزميل الطيّب. وقد خفض الأجرة إلى دولارين بالساعة، ثم أحضر من كوخه، على بعد مجمع سكني، جسما مثل صندوق بيانو أسود على عجلات.

لم يمسك الباب مفتوحا، وبالتأكيد لم يقل «جاهز، يا سيدي». أعتقد أنّه قد يموت قبل أن ينادي أيّ فرد «يا سيدي». حين وصل إلى بوابة القديس «هافين»، دعى القديس «سانت بيتر» باختصار «بيت»، وأتخيّل أنّ القديس الطيّب أحبّ ذلك. ثم أشار إليّ، قائلا:

- حسنا، أيها الزميل الشاب، ها هو تجهيز ممتاز للعربة.

جعلتني ابتسامته العريضة أشعر بأنني كنت جاره دائما. إن هؤلاء القرويين مستعدون دائما لمساعدة الغريب. لقد جعل مهمّته الخاصة فعلا، هي إيجاد «ليتكينز» من أجلي.

قال، على استحياء تقريبا:

- أنا لا أريد أن أتدخّل في عملك الخاص، أيها الزميل الشاب، لكن تخميني أنك تريد أن تحصّل بعض المال من «ليتكينز»، لكنه لا يدفع

سنتا واحدا لأي شخص أبدا، ومازال يدينني بست قطع لعينة من لعبة بوكر، كنت غبيّا بما فيه الكفاية للاشتراك بها. إنه ليس نوعا سيئا من الأجلاف، لكنه يكره بشكل طبيعي أن يفلت أيّ عملة من مملكته. إذا كنت تحاول أن تحصّل أيّة نقود منه، فمن الأفضل القول بأنه ينبغي عليك أن تزحف إليه وتحاصره. إذا رحت تسأل عنه، فيمكن لأيّ فرد أن يخبرك بأنك قادم من المدينة بخدعة ماكرة كتلك، وهو ما سيجعله يتشكك في الأمر ويلوذ بالفرار. إذا طلبت منّي ذلك، فسأدخل إلى دكان «فريتز بينك» وأسأل عنه، ويمكنك أن تختفي عن الأنظار ورائي.

كم أحببته لذلك. ربّما لم أكن لأجد «ليتكينز» وحدي أبدا، وها قد أصبحت الآن جيشا مع احتياطيات. أخبرت السائق المأجور في اندفاعه مفاجئة أنني أردت أن أقوم بخدمة استدعاء «ليتكينز» للشهادة؛ لأنّ هذا الرجل رفض بضراوة أن يشهد في دعوى كان يمكن لدرايته أن توضّح كلّ شيء في مداولة معينة.

أنصت السائق بشكل جدّي. كم كنت صغيرا بما فيه الكفاية كي أكون ممتنّا، أن يأخذ رجل في الأربعين من عمره الأمر بجدية. طبطب في النهاية على ظهري (بشكل مؤلم جدا)، وضحك:

- حسنا، سنحقق قليلا من المفاجأة على «أوليفر ليتكينز».

- دعنا نبدأ، أيها السائق.

- معظم الناس هنا يدعونني «بيل». أو «ماجنيسون». «وليام ماجنيسون»، للحمل والنقل الفاخر.

- حسنا، يا بيل. هل نمضي إلى دكّان اللحام «بينكي» ذاك؟

- أجل، محتمل أن يكون هناك مثل أيّ مكان آخر. يلعب كثيرا من البوكر، وله يد عظيمة في الخداع، عليه اللعنة!

بدا «بيل» معجبا بقدرة السيد «ليتكينز» كوغد. تخيّلت لو أنّه أصبح مأمورا للشرطة للقبض علي «ليتكينز» بحماس وشنقه بتأثر.

انحدرنا إلى دكان لحام كئيب نوعا، ودخلنا. كانت الغرفة تفوح برائحة كسوة جلدية. كان السيد «بنك» رجلا ضئيلا نوعا، من المفترض أن يبيع طوق عنق حصان إلى فلاح.

قال «بيل» بشدة مفاجئة:

- هل رؤي «أوليفر ليتكينز» في الجوار اليوم؟ لأنّ صديقا يبحث عنه.

نظر «بينكي» عبره إلى شخصي الأجنبي. تردد وتمالك نفسه:

- نعم، لقد كان هنا قبل فترة وجيزة. أخمّن أنه ربّما ذهب إلى دكّان السويدي ليحلق.

- حسنا، إذا جاء، فأخبره أنني أبحث عنه. ربّما يلعب دورا صغيرا من البوكر. لقد سمعت من أخبرني أن «ليتكينز» يلعب هنا ألعاب حظ فاسقة.

هدر بينكي:

- أجل، أعتقد أنّه اشتهر باحتلال مقاعد مع آخرين.

بحثنا في دكان «السويدي» الحلاق. كان «بيل» طيّبا بما فيه الكفاية كي يأخذ مركز الصدارة، بينما وقفت عند الباب. لم يسأل السويدي فقط، بل سأل زبونين أيضا عمّا إذا كانا قد شاهدا «ليتكينز». قرّر السويدي أنه لم يره غاضبا:

- إنني لم أره، ولا أريد. لكن إذا وجدته يمكنك فقط أن تحصّل منه الدولار وخمسا وثلاثين سنتا، التي يدين بها لي.

اعتقد أحد الزبائن أنّه رأى «ليتكينز» يقوم بنزهة طويلة على قدميه عبر الشارع الرئيسي، إلى جوار ذلك الجانب القريب من الفندق.

- حسنا، إذن.

استنتج «بيل»، بينما كنّا نصعد إلى العربة:

- إن الثقة في تصديق السويدي، جعلت من المحتمل أنه شقّ طريقه إلى دكان «هيني جراي» الحلاق. إنه كسول ضئيل القيمة ليحلق لنفسه.

فقدنا «ليتكينز» أيضا في دكّان الحلاق جراي بخمس دقائق فقط. من المفترض أنّه قد غادر حالا إلى مكتب مراهنة على جياد السباق. واتضح في كتب المراهنة أنّه قد اشترى مجرّد علبة سجائر وانصرف على أثرها. هكذا، تابعناه، خلفه دائما دون أن نمسك به، وذلك لمدّة ساعة، حتى أصبحت الساعة الواحدة، وكنت جائعا. ونظرا لكوني من مواليد قرية، وغالبا ما أكون وحيدا وسط المدينة، لذلك كنت شديد السرور بآراء «بيل» المتهكمة على الحلاقين ورجال الدين والأطباء وسائقي عربات «نيوميليون»، لدرجة أنني لم أعد أهتم سواء وجدنا «ليتكينز» أم لا.

اقترحت عليه:

- ما رأيك في شيء نأكله. دعنا نذهب إلى مطعم، وسأشتري لك غداء.

- حسنا، ينبغي الذهاب إلى امرأة عجوز في البيت. وأنا لا أهتم كثيرا بهذه المطاعم، التي ليست جيّدة بل إنّ أربعة منها متعفنة. سأخبرك بما سنفعل. أتحبّ أن ترى منظرا طريفا؟ هناك منظر رائع في منطقة «وادز هيل». سنمضي إلى سيدة عجوز كي تعدّ لنا غداء، ولن تتقاضى منك سوى نصف دولار، وهو تكلفة غداء دهني في كافتيريا، ومن هناك نقوم بنزهة «صنداي سكول».

عرفت أن صديقي «بيل» لم يكن خاليا من المكر، وعرفت أن كرمه مع الزميل الشاب القادم من المدينة لم يكن جملة أمر حبّ أخوي فقط. كنت أدفع له للوقت الذي يقضيه معي، وعلى الإجمال كان كلّ ما دفعت له عن ست ساعات (متضمنة ساعة الغداء)، يعتبر سعرا معقولا. لكنه لم يكن أكثر غشّا مني، أنا الذي أتقاضى كل ما أدفع من المؤسسة، وهو ما كان يقتضي أن أدفع له بنفسي مقابل وجوده. كان صفاؤه الريفي، وحكمته الطبيعية، حماما منعشا لانتشال فتى المدينة. تحدّث عن بلدة «نيوميليون»، بينما كنّا نأكل على قمّة الجبل، ناظرين عبر بساتين، وجدول ينساب بين الصفصاف، وقدم أثناء ذلك معرض صور كاملًا للقرية. كان متهكّما رقيقا. لم يفلت منه شيء، ورغم ذلك لم يكن أيّ شيء، مهما ضحك منه بشكل ساخر، بعيدا عن فهمه ومغفرته. علق على الأولاد، الذين رجعوا من الكلية وهم «يلهثون من أكل الآيس كريم»، وعلى المحامي الذي بعد

سنوات من نزاع جارف مع زوجته، كان يرتدي إمّا ياقة كتانية أو ربطة عنق، دون أن يرتديهما أبدا معا. جعل كلّ تلك الشخصيات حيّة. وقد تيسّر لي في ذلك اليوم أن أعرف بلدة «نيوميليون» أكثر ممّا عرفت المدينة، وأن أحبّها أكثر.

إذا كان «بيل» جاهلا بالجامعات وبالطرق الحضرية، فقد تقلب كثيرا رغم ذلك في عالم الوظائف. لقد عمل في قسم جماعات السكك الحديدية، وفي حقول الحصاد، ومعسكرات المقاولين. ومن مغامراته اكتسب فلسفة للبساطة والضحك. لقد شدّ من عزمي. وحين أفكّر في «بيل»، في الوقت الحاضر، أعرف ما يعنيه البشر (رغم أنني أكره هذه العبارة المتكلفة) عندما يتناقشون عن «كونه رجلا حقيقيا».

تركنا مكان البساتين الهادئ ذاك، واستأنفنا البحث عن «أوليفر ليتكينز». لم نستطع أن نجده. أخيرا، حاصر بيل صديقا لـ«ليتكينز»، وجعله يعترف بأنه خمّن أن أوليفر خرج إلى مزرعة أمه، التي تبعد ثلاثة أميال إلى الشمال. اندفعنا إلى هناك، بقوّة وبراعة في التخطيط.

تنهّد «بيل» قائلا:

- إنني أعرف أمّ أوليفر. إنها إرهابية. إنّها إعصار.

ثم استطرد:

- لقد حملت لها صندوق ثياب ذات مرة، وهي قربي تماما فأشاحت بوجهها غاضبة؛ لأنني لم أعامل الصندوق بحرص كما لو كان يحتوي بيضا. يبلغ طولها تسعة أقدام، وأربعة أقدام عرضا تقريبا.

سريعة كقطة، وهي متأكّدة من قدرتها على فعل المستحيل. أراهن على أن «أوليفر» قد سمع عن محاكمته من شخص ما، فاختفى هناك وراء تنورات أمه. حسنا، سنحاول أن نستدعيها، لكن من الأفضل لو تركتني أقوم بذلك، أيها الفتي. ربما تكون متفوقا في اللغة اللاتينية والجغرافيا، لكنك لم تكتسب خبرة في المشاكسة.

انطلقنا إلى فضاء مزرعة فقيرة. ووجهنا بسيدة عجوز هائلة الحجم، مبتهجة الوجه. وقف أمامها وليّ أمري بشكل أحمق وزمجر:

- هل تتذكريني؟ إنني «بيل ماجنيسون»، مستخدم شركة للنقل السريع. أريد أن أجد ابنك «أوليفر»؛ لأنّ صديقا لي من المدينة يحمل له هدية.

جأرت:

- إنني لا أعرف عنه أيّ شيء، ولا أريد أن أعرف.

- تريّثي، الآن، قليلا. إننا لم نحصل حتى الآن سوى على مجرّد هراء. هذا الشاب هو رئيس المدعي العام، ولدينا حقّ قانوني لتفتيش أيّ أو كلّ المباني بحثا عن شخص واحد، هو «أوليفر ليتكينز».

جعل «بيل» الأمر يبدو رائعا، وبدت المرأة المسترجلة منبهرة وتراجعت إلى المطبخ، فتتبعناها. اختطفت مكواة ثقيلة من الموقد القديم المنخفض، الذي حولته حرارة سنوات إلى لون رمادي فضي قاتم، وتقدّمت إلينا، صارخة:



- يمكنك أن تفتش كلّ ما تريد فقط، لكن تحوّطك لن يمنع أن تحترق وتتحول إلى نفاية!

جأرت، انتفخت، وسخرت من تقهقرنا الهلِع. تأوّه «بيل»:

- دعنا نخرج من هنا. إنها ستقتلنا.

وفي الخارج، قال:

- هل رأيت تكشيرتها؟ لقد كانت تسخر منّا. هل تعتبر ذلك جرأة؟

وافقت على أن ذلك كان إجراما في حقّ العدالة.

ومع ذلك، قمنا بتفتيش كاف. كان الكوخ من طابق واحد. دار «بيل» حوله، مختلسا النظر من كلّ النوافذ. استكشفنا الحظيرة والإسطبل. كنّا متأكدين إلى حدّ معقول أن «ليتكينز» لم يكن هناك. وكان ذلك تقريبا هو الوقت المناسب لي للحاق بقطار العصر، وقد أوصلني «بيل» إلى محطة السكك الحديدية.

قلقت قليلا، خلال طريق عودتي إلى المدينة، من فشلي في إيجاد «ليتكينز». كنت قد تشرّبت تماما بفكر «بيل ماجنيسون». وقد أخذت بعين الاعتبار حقا، العودة إلى بلدة «نيوميليون» لمزاولة القانون. إذا كنت قد وجدت «بيل» إنسانا عميقا وثريّا بهذا الشكل، أفلا ينبغي أن أتقدّم محبة لـ«فريتز بينكي» المجهول حتى الآن، والحلاق السويدي، ومائة جار آخر من أشخاص بسطاء، حكماء، بطيئي الكلام؟! لقد رأيت حياة ثريّة سعيدة فيما وراء تعاليم شركات محاماة الجامعات الأنيقة.

كنت مستثارا تماما، كمن وجد كنزا.

لكن إذا لم أكن قد فكّرت طويلا، فإنّ المكتب فعل. وجدتهم في حالة استنفار رسمي في الصباح التالي، كانت القضيّة مهيّأة للتقدّم إلى المحاكمة، وكان ينبغي وجود «ليتكينز»، كنت خزيانا وغبيا. قاربت مهنتي السامية على الانتهاء في ذلك الصباح تقريبا. فعل الرئيس كلّ شيء، لكنه لم يتعهد ببتر أحد الأعضاء، كان أكثر إلماحا إلى أنني يمكن أن أبلي بلاء حسنا في دعم القضية. أمرت أن أعود ثانية إلى بلدة «نيوميليون»، وأرسلوا معي كاتب معسكر أخشاب سابق يعرف «ليتكينز». كنت بالأحرى أسفا؛ لأنّ ذلك قد يمنع تسكعي مرّة أخرى بشكل كسول مع «بيل ماجنيسون» الرائع.

حين اقترب القطار من بلدة «نيوميليون»، كان «بيل» على رصيف المحطة، قرب عربته. كان شكله مثيرا للفضول، هو وتلك التنين العجوز، أمّ «ليتكينز»، التي كانت هناك تتحدث معه، ولم يكونا يتشاجران، بل كانا يضحكان.

من عتبات السيارة، أشرت لكاتب معسكر الخشب إليهما، وغمغمت بصوت بطل شاب متعبّد:

- هاك زميل رائع، رجل حقيقي.

سأل الكاتب:

- هل قابلته هنا بالأمس؟

- قضيت اليوم معه.

- هل ساعدك على اصطياد «أوليفر ليتكينز»؟

- نعم، لقد ساعدني كثيرا.

- ينبغي أن يكون كذلك! إنّه «ليتكينز» نفسه!

لكن ما آذاني حقا، هو أنني عندما قمت باستدعاء «ليتكينز»، ضحكت أمّه، كما لو كنت فتى غرا في السابعة، وبعناية محبّة رجتني مع «ليتكينز» أن أذهب إلى منزل جيران لهما لتناول فنجان من القهوة.

قال «ليتكينز» بمرح:

- لقد حكيت لهم عنك، وأصبحوا يموتون شوقا لإلقاء نظرة عليك. إنهم الوحيدون فقط بين جمهور البلدة، الذين افتقدوا رؤيتك بالأمس.

القيّم على منارة اسبينول

الفصل الأول

حدث ذات مرّة أن اختفى القيّم على منارة «اسبينوول»، التي لا تبعد كثيرا عن بنما، دون أن يترك أثرا. كان مفترضا طالما أن الرجل سيئ الطالع اختفى خلال عاصفة، فلابد أنه قد مضى إلى حافة الجزيرة الصخرية الصغيرة التي انتصبت عليها المنارة، واكتسحته موجة بعيدا. بدا ذلك الافتراض أكثر احتمالا؛ لأنّ قاربه لم يعثر عليه في اليوم التالي في مكانه الصخري المعتاد. وأصبح مكان قيّم المنارة شاغرا. كان من الضروري شغل هذا المكان في أقرب وقت ممكن، ما دامت المنارة تتمتع بأهمية ليس لحركة الملاحة المحلية فقط، بل للسفن المتجهة من نيويورك إلى بنما أيضا، حيث تكثر في خليج «موسكيتو» مرتفعات رملية ومنحدرات، تعتبر الملاحة بينها صعبة حتى في أوقات النهار، بينما تصبح مستحيلة تقريبا في الليل، خاصة مع الضباب، الذي يتخلف في تلك المياه المتّقدة بفعل شمس المناطق المدارية، بل قد تصبح الملاحة مستحيلة تقريبا، ويكون المرشد الوحيد للسفن العديدة في ذلك الوقت هو ضوء المنارة.

كانت مهمة إيجاد قيّم جديد تقع على عاتق قنصل الولايات المتحدة، الذي يعيش في بنما. ولم تكن هذه المهمّة عملا هيّنا: أولا، لأنّه كان من

الضرورة القصوى إيجاد الرجل في غضون اثنتي عشرة ساعة. وثانيا، لابد أن يكون ذلك الرجل صاحب ضمير بشكل غير عادي. ولم يكن ممكنا بطبيعة الحال، قبول أول قادم بشكل عشوائي. وأخيرا، كانت هناك ندرة تامة للمرشحين. إنّ الحياة في البرج صعبة بشكل غير مألوف، ولم تكن هناك وسائل لإغراء أهل الجنوب، الذين يحبّون التبطل وحريّة حياة التشرد. كما أنّ قيّم المنارة يعتبر سجينا تقريبا؛ لأنّه لا يستطيع مغادرة الجزيرة الصخرية سوى في أيام الآحاد، بينما يجلب إليه مركب من «اسبينوول» المؤن والماء مرّة واحدة في اليوم ويعود فورا. كما لا يوجد أيّ ساكن على متر واحد من الجزيرة كلها. يعيش القيّم في المنارة، ويحافظ على النظام، وهو يرفع أثناء النهار إشارات بأعلام ذات ألوان مختلفة، كي يشير إلى تغيّرات الضغط الجوي، بينما يضيء فانوسا في المساء. لن يكون ذلك عملا كبيرا لولا ضرورة إيصال ذلك الفانوس إلى قمّة البرج، حيث يكون عليه أن يصعد أربعمائة سلمة شديدة الارتفاع، ويكون عليه أحيانا أن يقوم بهذه الرحلة مرارا خلال النهار. وبشكل عام، تعتبر تلك حياة راهب، بل ربّما تكون فعلا أكثر من ذلك، حياة ناسك. لذلك لم يكن من الغريب، أنّ السيد القنصل «إسحق فالكونبريدج»، كان في مأزق صغير؛ إذ أين يمكنه أن يجد الخلَف الدائم للقيّم الحالي. وكان من السهل تفهّم فرحته حين أعلن الخلف عن نفسه بشكل غير متوقع أبدًا في ذلك اليوم بالذات. كان رجلا عجوزا فعلا، في السبعين من عمره أو أكثر، لكنه مفعم بالنشاط ، منتصب

الجسم، بحركات ولحية جندي. كان شعره أبيض تماما. كان وجهه قاتما، كما يتبين من عينيه الزرقاوين أنه لا ينتمي إلى شعب الجنوب. يبدو وجهه محبطا وحزينا بشكل ما، لكنه صادق. وقد أسعد «فالكونبريدج» من الوهلة الأولى. كان باقيا أن يختبره. لذلك بدأت بينهما المحادثة التالية:

- من أين أنت؟

- إنني بولندي.

- أين عملت حتى هذا الوقت؟

- كنت أتنقل بين مكان وآخر.

- ينبغي على قيّم المنارة أن يبقى في مكان واحد.

- إنّي أحتاج إلى الراحة.

- هل عملت من قبل؟ هل لديك شهادات في خدمة الحكومة؟

سحب الرجل من صدر ثوبه قطعة ذابلة من حرير تشبه شريطا من علم قديم، وبسطها، قائلا:

- ها هي الشهادات. تسلمت هذا الصليب عام 1930. الصليب الثاني أسباني من حرب كارليست، والثالث من الفيلق الأجنبي الفرنسي، والرابع تلقيته في المجر. وقد حاربت بعد ذلك في الولايات ضد الجنوب، لكنهم هناك لا يمنحون صلبانا.

تناول «فالكونبريدج» الورقة، وبدأ يقرأ:

- هم ! «شافينسكي»؟ هل هذا اسمك؟ هم! وانتزعت علمين في هجوم بالحربة. لقد كنت جنديا شجاعا..

- يمكنني أن أكون قيّم منارة حيّ الضمير.

- ومن الضروري أن تصعد البرج عدّة مرات يوميا. هل تمتلك ساقين سليمتين؟

- لقد عبرت السهول بين الشرق وكاليفورنيا سيرا على قدمي.

- هل تعرف خدمة البحر؟

- لقد خدمت ثلاث سنوات على سفينة صيد حيتان.

- لكنك حاولت ممارسة مختلف أعمال البحر.

- الشيء الوحيد الذي لم أعرفه هو الهدوء.

- لماذا؟

هزّ العجوز كتفيه باستهجان، قائلا:

- لأنّ ذلك قدري.

- لكن مازال يبدو لي أنك أكبر عمرا من أن تكون قيّم منارة.

اعترض المرشح فجأة بصوت منفعل:

- سيدي.

ثم استطرد:

- لقد تجوّلت كثيرا وأنهكت. وقد مررت بالكثير كما ترى. يعتبر هذا المكان واحدا من الأماكن التي رغبت فيها بحماسة شديدة. إنني عجوز أحتاج إلى الراحة. أحتاج إلى أن أقول لنفسي «هنا ستبقى، هذا هو مرفأك». آه، يا سيدي، إنّ هذا يتوقف الآن عليك وحدك. ربّما في وقت آخر لن يعرض هذا المكان نفسه. كم أنا محظوظ أن أكون في بنما! إنني أتوسّل إليك، بكلّ ما هو عزيز عليّ؛ لأنّي مثل سفينة إذا افتقدت المرفأ ضاعت. إذا شئت أن تجعل عجوزا سعيدا - فإني أقسم لك صادقا - أنني نلت كفايتي من التيه.

عبّرت عينا العجوز الزرقاوين عن مثل هذا التوسل الجاد حتى تأثر «فالكونبريدج»، الذي كان يمتلك قلبا بسيطا طيبا، فقال:

- حسنا، سأختارك. أنت قيّم المنارة.

تألق وجه العجوز بفرحة يعجز التعبير عنها:

- إنني أشكرك.

- هل يمكنك الذهاب إلى البرج اليوم؟

- يمكنني.

- إذن، مع السلامة. كلمة أخرى، إذا حدث أيّ تقصير في الخدمة فسيتم إقصاؤك.

- من غير ريب.

عندما انحدرت الشمس، في نفس المساء، على الجانب الآخر من البرزخ، وأشرق نهار تلاه ليل دون غسق، كان واضحا أنّ قيّم المنارة الجديد في مكانه؛ لأنّ المنارة كانت ترسل أشعتها اللامعة على المياه كالمعتاد. كان الليل هادئا تماما، صامتا، استوائيا بشكل حقيقي، ممتلئا بسديم شفاف مشكلا حول القمر قوس قزح عظيمًا ملوّنًا ذا حافات مكتملة ناعمة، وكان البحر يتحرّك فقط لأنّ المدّ رفعه. بدا «شافينسكي» في الشرفة لمن ينظر من أسفل مثل نقطة صغيرة سوداء. حاول أن يستجمع أفكاره وأن يستوعب عمله الجديد، لكن عقله كان مازال تحت ضغط التحرّك المعتاد. شعر كما يشعر وحش أسير وجد في النهاية ملاذا بدلا من السعي إلى الوصول إلى صخرة أو كهف. دانت له أخيرا هناك ساعة من هدوء، وملأ شعور بالأمان روحه بسعادة غامرة. الآن يمكنه أن يسخر على تلك الصخرة ببساطة من جولاته السابقة، مصائبه، وخيباته. كان في الحقيقة مثل سفينة تكسّرت صواريها وأشرعتها وحبالها وتمزّقت بفعل عاصفة، وألقيت من السحب إلى قاع البحر، تلك السفينة التي قذفتها العاصفة بأمواجها المهرولة ورغواتها المتشاحنة، لكنها لا تزال تشقّ طريقها إلى المرفأ. عبرت صور تلك العاصفة سريعا بذهنه بينما هو يقارنها بالمستقبل الهادئ الذي يبدأ الآن. كان قد سرد جزءا من مغامراته العجيبة على «فالكونبريدج»، لكنه لم يذكر مع ذلك آلافا من أحداث أخرى. لقد كان ذلك من سوء حظه؛ إذ كلما استطاع أن ينصب خيمته ويثبت مصطلاه كي يستقرّ نهائيا، إذا ببعض الريح تنزع أوتاد خيمته، دافعة إيّاها إلى النار، حاملة لها باتجاه الدمار. تذكّر جيدا وهو يتطلع من شرفة البرج إلى الأمواج المضاءة، كل ما

مرّ به. لقد اشترك في حملات إلى أنحاء العالم الأربعة، وقد جرّب مختلف الأعمال تقريبا خلال تجواله. عمل بمحبة وصدق أكثر من مرّة كسب فيها نقودا، وفقدها دائما، على الرغم من كل التحوّط ومنتهى الحذر. عمل منقّبا عن الذهب في استراليا، حافرا عن الماس في إفريقيا، وجنديا في كتيبة مشاة في الخدمة العامة في الهند الشرقية. أنشا مزرعة في كاليفورنيا دمّرها الجفاف، جرّب التجارة مع القبائل المتوحشة داخل البرازيل، تحطم طوقه وغرق في نهر الأمازون، وتجوّل في الغابة وحيدا دون سلاح عاريا تقريبا، لعدّة أسابيع عائشا على فاكهة بريّة معرضا في كلّ لحظة للموت بين أفكاك الوحوش المفترسة. أنشأ دكّان حدادة في هيلانة باركنساس، أحرقتها نار عظيمة التهمت البلدة كلها. سقط بعد ذلك بين أيدي الهنود في جبال روكي، ولم تنقذه سوى معجزة بواسطة صيادين كنديين. ثم خدم كبحار على سفينة تبحر بين «باهيا» و«بوردو»، وكصائد حيتان على سفينة صيد حيتان، وقد تحطمت كلتا السفينتين وغرقتا. امتلك مصنع سيجار في هافانا سرقه شريكه أثناء رقوده مريضا. أخيرا جاء إلى «اسبينول»، وهناك ستكون نهاية خيباته، فما الذي يمكن أن يحدث له على تلك الجزيرة الصخرية؟ لا ماء ولا نار، ولا رجال. لكن «شافينسكي» لم يعان من الرجال كثيرا، فغالبا ما قابل رجالا أخيارًا أكثر ممّا قابل من أشرار.

من ناحية أخرى بدا له أنّ كلّ العناصر الأربعة كانت تضطهده. قال أولئك الذين عرفوه إنه سيئ الحظ، وفسّروا بذلك كلّ شيء. لقد أصبح هو نفسه ممسوسا بشكل ما. وقد آمن أن قوى عليا ويدًا منتقمة تطارده في كلّ

مكان، سواء على اليابسة أو في البحار. لم يكن يحبّ، مع ذلك، أن يتحدث عن هذا الأمر، إلاّ في أوقات معينة. وإذا ما سأله فرد ما عمّن تكون تلك اليدّ، فإنه يشير بغموض إلى نجمه القطبي، قائلا «إنّها تأتي من ذلك المكان». كانت خيباته مستمرة في الواقع لدرجة أنها كانت تدهشه، وربّما لطشت رأسه، خاصة بالنسبة لرجل عركها جيدا. لكن «شافينسكي» كان يمتلك صبر هندي، وتلك القوة العظيمة الكامنة للمقاومة التي تنبع من قلب صادق.

كان قد نال في زمنه عددا من حراب هجومية في المجر؛ لأنه لم يتعلق في ركاب بدت كوسائل استعباد بالنسبة له، ولم يبك طلبا للرحمة. بمثل هذا السلوك لم ينع سوء حظه. تسلق الجبل بشكل دءوب كنملة. سقط باندفاع مئات المرات، وكان يبدأ رحلته بهدوء للمرّة المائة وكأنّها المرّة الأولى. كان في طريقه أكثر أصالة وتميّزا. هذا الجندي العجوز الصلب، يعلم الله كم من حرائق خففت من معاناته، وصقلته، وصلبت عوده، فقد كان له قلب طفل. في زمن الوباء في كوبا، هاجمه القيء؛ لأنه منح المرضى كلّ ما كان لديه من أقراص الكينيين، التي كان يمتلك منها مئونة معتبرة، ولم يبق منها حبّة لنفسه.

هناك، كان يكمن بداخله أيضا هذا المعدن الرائع؛ لأنّه بعد خيبات عديدة كان ممتلئا بالثقة، ولم يفقد الأمل في أنّ كلّ شيء سيكون أخيرا على ما يرام. أصبح في الشتاء مفعما بالحياة تدريجيا، وتوقع أحداثا عظيمة. انتظر هذه الأحداث بفارغ صبر، وعاش يفكّر فيها على مرّ الأصياف. لكن شتاء مرَّ، وتبعه آخر. عاش «شافينسكي» من أجل هذا فقط، وكانت تلك هي

التي بيّضت شعر رأسه. في النهاية، بدأ يشيخ، ويبدأ يفقد حيويته، وأصبح جلده أكثر وأكثر قربا للاستسلام. كان هدوءه السابق يتحوّل إلى حساسية مفرطة، وأصبح ذلك الجندي الصلب يتحوّل إلى رجل مستعد أن يذرف دموعا لأيّ سبب. بالإضافة إلى ذلك، كان ينهار ما بين وقت وآخر، من حنين مرعب لوطنه، يستثار من أي سبب: رؤية طيور السنونو، أو طيور رمادية مثل العصافير، أو ثلج على الجبال، أو موسيقى حزينة سمعها ذات مرة. أخيرا، أصبحت هناك فكرة واحدة مسيطرة عليه، هي فكرة الراحة. سيطرت على العجوز كلية، وابتلعت كل الرغبات والآمال الأخرى. لا يمكن أن يتصوّر ما يتوق إليه هذا المتجوّل المعتزل، أكثر من ركن هادئ يستريح فيه، منتظرا النهاية في صمت. ربّما خصيصا؛ لأن نزوة قدر عجّلت بدفعه عبر كل البحار والأراضي، لدرجة أنّه أصبح يلتقط أنفاسه بصعوبة. هل كان يتصور ببساطة أن أقصى سعادة للإنسان لم تكن في التجوّل. إنها حقيقة، إنّ سعادة متواضعة مثل هذه كانت ما يستحقه، لكنه كان دائم الاعتياد على الخيبات لدرجة أنه فكر أن بقية الناس يفكرون بشكل عام في أمر بعيد المنال. لم يجرؤ أن يطمح إليه. وفجأة، في الوقت نفسه وفي غضون اثنتي عشرة ساعة كسب موقعا كما لو كان قد تمّ اختياره له دون كلّ أفراد العالم. ليس لنا، إذن، أن نتعجب، أنه حين أضاء فانوسه في المنارة، أن أصبح كما لو كان دائخا، وسأل نفسه عمّا إذا كان ذلك حقيقيًّا، ولم يجرؤ على الإجابة بأنه كان كذلك. لكن في نفس الوقت أقنعه الواقع ببراهين قاطعة. وهكذا مرّت ساعة تلو أخرى بينما كان هو في الشرفة. حملق وأقنع نفسه. ربّما بدا كما لو أنه ينظر إلى البحر للمرّة الأولى في حياته. نشرت عدسات

الفانوس على الظلام مثلثا هائلا من ضوء، بينها تاهت عينا العجوز في المسافة المظلمة تماما، في تلك المسافة الغامضة والمروّعة. لكن تلك المسافة بدت أنها تمضي نحو الضوء. تدحرجت من الظلام موجات طويلة متتابعة واحدة وراء أخرى، ومضت منتفخة باتجاه قاعدة الجزيرة، ثم رجعت رغوتها واضحة، ساطعة بلون الورد في ضوء الفانوس. تضخم المدّ الوافد أكثر وأكثر، مغطيا التلال الرملية. جاءت كلمة المحيط الغامضة بامتلاء أكثر قوة وعلوا، مرّة واحدة مثل دويّ مدفع، مرّة أخرى مثل زئير غابات عظيمة، وفي أخرى مثل دويّ صوت بعيد من أصوات البشر. وفي لحظات كان هادئا، ثم جاء إلى أذني العجوز صوت تنفس زفير عظيم، تلاه نوع من نشيج، ومرّة أخرى انفجارات مهددة. أخيرا حملت الريح السديم بعيدا، لكنها جلبت سحبا سوداء متكسّرة أخفت القمر. وبدأت تهبّ ريح من الغرب أكثر وأكثر. وثبتت الأمواج بغضب أمام صخرة المنارة، لاعقة برغوتها حوائط البناء. ومن بعيد بدأت هناك عاصفة تهبّ. تألقت في الظلام امتدادات فوانيس خضراء قلقة من سواري السفن. ارتفعت تلك النقاط الخضراء عاليا، ثم غاصت، وانجرفت تارة إلى اليمين، وتارة أخرى إلى اليسار. هبط «شافينسكي» إلى غرفته. بدأت العاصفة في العواء. كان أولئك البشر، في الخارج، على تلك السفن يناضلون مع الليل، مع الظلام، مع الأمواج، لكن بداخل البرج كان هناك سكون وهدوء. حتى أنّ أصوات العاصفة اخترقت الجدران السميكة بصعوبة، وهدهدت دقات الساعة تيك – تاك القياسية العجوز المنهك كي يمضي إلى مهجعه.

الفصل الثاني

بدأت تمرّ الساعات، والأيام، والأسابيع. يؤكّد البحارة أنّه أحيانا عندما يرتفع البحر كثيرا، فإنّ شيئا من وسط الليل والظلام يناديهم بالاسم. إذا صرخت لانهائية البحر هكذا، فربّما حين يبدأ الرجل في المشيخ، تأتي النداءات إليه أيضا من لانهائية أخرى لا تزال أشد قتامة وأكثر غموضا بعمق. وكلما ازداد إنهاكا من الحياة، فإن الأحبّاء هم من ينادونه. لكن حتى تسمعهم، فإنّ الهدوء مطلوب تماما. وكان كبار السن يحبّون أن يتجاهلوها تماما كما لو كان ذلك ينبئ بقرب موتهم. أصبحت المنارة بالنسبة لـ«شافينسكي» مثل نصف قبر. ليس هناك ما هو أكثر رتابة من الحياة في برج منارة. إذا وافق الشباب على العمل في هذه الخدمة، فإنهم سرعان ما يتركونها بعد مرور بعض الوقت. إن قيّمي المنارات بشكل عام رجال ليسوا شبابا، عابسين، منغلقين على أنفسهم. إذا غادر أحدهم المنارة صدفة وخرج بين رجال، فإنه يمشي في خضمّهم مثل شخص نهض من سبات عميق؛ لأنّ هناك نقصًا على البرج في الانطباعات اللحظية التي تعلم الرجال في الحياة العادية أن يوائموا أنفسهم مع أيّ شيء. يتأتّى تواصل قيّم المنار مع كلّ ذلك بشكل هائل مؤكد. السماء هي كلّ واحد والماء كلّ آخر، وبين هذين اللامتناهيين تتوحّد روح الرجل. تلك حياة يكون التفكير فيها تأمّلا مستمرا ولا ينبعث من هذا التأمّل أيّ شيء يوقظ القيّم، ولا حتى عمله.

يشبه كلّ يوم يوما آخر، مثل خرزتين في مسبحة. ما لم تحدث تغيّرات في الطقس تكون هي التغيّر الوحيد.

لكن «شافينسكي» شعر بسعادة أكثر من أيّ وقت مضى في الحياة. نهض مع الفجر، تناول إفطاره، لمّع العدسات، ثم جلس في الشرفة محملقا في امتداد الماء، ولم تشبع عيناه أبدا من الصور التي رآها أمامه. كان يمكن أن يرى على أرضية المحيط الفيروزية الضخمة عموما قطعانا من أشرعة منتفخة تتألق تحت أشعة الشمس بشكل زاه لدرجة أن العينين يطرفان أمام محور الضوء. تكون السفن أحيانا محظوظة بما يسمى الرياح التجارية، فتمضي في خط موحّد ممتد واحدة وراء أخرى، مثل سلسلة من نوارس أو سرطانات بحر. تشير إلى الممر براميل خشبية ضاربة إلى الحمرة، وهي تتأرجح على موجة ضوء مع حركة رقيقة. تبدو بين الأشرعة كلّ عصر أعمدة دخان رمادية ضخمة. تلك كانت باخرة من نيويورك جلبت مسافرين وبضائع إلى «اسبينول»، راسمة وراءها دربا مزبّدا من الرغوة. رأى «شافينسكي» على الجانب الآخر من الشرفة، نخيل «اسبينول»، ومرفأها المزدحم، وفيه غابة من سواري، وقوارب، ومراكب صغيرة، ورأى إلى أبعد قليلا منازل بيضاء وأبراج المدينة. بدت المنازل صغيرة من قمّة البرج مثل أوكار نوارس البحر، والقوارب مثل خنفسات، والناس تتحرّك حولها مثل نقاط صغيرة على حجر شارع أبيض عريض. منذ الصباح الباكر، جلب نسيم شرقي خفيف همهمة مختلطة لحياة بشرية، غطى عليها صفير البواخر. وجاءت السادسة تماما فيما بعد الظهر، فبدأت الحركة

تتوقف، وأخفت النوارس نفسها في شقوق الجرف، وغدى الموج ضعيفا، صار كسولا نوعا، ثم جاء وقت سكون تام لا يجرحه أيّ شيء على الأرض، على البحر، أوعلى البرج. تألقت رمال صفراء انحسرت عنها الأمواج، مثل شرائط ذهبية بعرض المياه، وكان جسم البرج محددا بشكل مؤكد باللون الأزرق. تدفقت من السماء فيضانات من أشعة الشمس على الماء ورمال الجرف. أمسك تراخ حلو في ذلك الوقت بالعجوز. شعر أن ما يستمتع به كان ممتازا، وعندما فكّر أنه سيكون مستمرا، لم يعد يفتقد أيّ شيء.

كان «شافينسكي» مخمورا بسعادته الخاصة، ومنذ أن كيّف الرجل نفسه بيسر مع أوضاع ميسّرة اكتسب إيمانا وثقة متصاعدة، وتأكّدت قناعته بمرور الزمن. تنامى اعتياد العجوز على برجه، على فانوسه، على الصخرة، على تلال الرمال، وعلى العزلة. تنامى اعتياده أيضا على نوارس البحر التي بنت أعشاشها في شقوق الصخرة. وعقد اجتماعاته في المساء على سطح المنارة. رمى «شافينسكي» لها بقايا طعامه، وسرعان ما تآلفت معه. وفيما بعد، عندما كان يغذيها، طوقته عاصفة حقيقية من أجنحة بيضاء، وأصبح العجوز وسط الطيور مثل راع وسط خراف. عندما انحسر المدّ، مضى إلى مرتفعات رملية منخفضة جمع من بينها طعاما من حلزونات البحر، وقواقع لؤلؤية جميلة خلفتها موجات منحسرة على الرمل. وذهب لصيد الأسماك التي ارتادت لفات المنحدر في أعداد كبيرة، في الليل وعلى ضوء القمر، والبرج. أخيرا، وقع في هوى صخوره وجزيرته الصغيرة التي بلا أشجار، بل بنباتات كثيفة صغيرة لزجة منتشرة في كلّ مكان. ومع ذلك، إعادته تلك

المشاهد البعيدة إلى فقر الجزيرة. وحين يصبح الهواء نقيًا، في ساعات ما بعد الظهيرة، أمكنه أن يرى البرزخ كله مغطى بأغنى النباتات. بدا لـ«شافينسكي» في مثل تلك الأوقات، أنه رأى هناك فقط فيما وراء منازل اسبينول حديقة عملاقة واحدة من شجيرات كاكاو، وأشجار موسى هائلة، مختلطة كما لو كانت في خصلة من باقات فاخرة. وكانت هناك غابة عظيمة، أبعد من ذلك، فيما بين «اسبينول» و«بنما» التي علق عليها كلّ صباح ومساء سديم ارتفاعات منتظم من غابة استوائية حقيقية مستقرّة في مياه راكدة، متشابكة مع نباتات متسلقة وممتلئة بصوت بحر واحد من بساتين عملاقة، ونخيل، وأشجار لبنية، وأشجار رحمية، وأشجار صمغية.

أمكن للعجوز أن يرى من نظارة الميدان، ليس فقط أشجار وأوراق الموز العريضة، بل أيضا سيلًا من قردة، ولقالق عظيمة، وأسراب ببغاوات، ترتفع في أوقات كقوس قزح يمكن أن يغطي الغابة. عرف «شافينسكي» مثل تلك الغابات جيّدا؛ لأنه بعد ما تحطمت سفينته وغرقت في الأمازون، تجوّل طوال أسابيع بين مداخل وأجمات مماثلة. وقد رأى كم من أخطار عديدة وموت، تكمن مختفية تحت تلك المخارج الرائعة الساحرة. سمع بشكل قريب أصواتًا كئيبة لعويل قرود وزئير نمور أمريكية، أثناء الليالي التي قضاها هناك، ورأى ثعابين عملاقة معترشة مثل نبتة على الأشجار، وعرف بحيرات بريّة مجهولة تتجاوز ورقة شجرة مفردة منها حجم رجل عشر مرات، بريّة تعجّ ببعوض مصاص للدماء، وأشجار طفيلية، وعناكب عملاقة سامة. لقد خبر حياة تلك الغابة بنفسه، وشهدها، وعبر خلالها، وهو ما منحه أعظم متعة وهو يطلّ من ارتفاعه ويحملق في تلك

المخلوقات، معجبا بجمالها، ومتوخّيا الحذر من غدرها. لقد حفظه البرج من كلّ شرّ. كان يغادره فقط لعدّة ساعات يوم الأحد. يرتدي عندئذ معطف القيّم الأزرق بأزراره الفضية، ويعلق صلبانه على صدره. كان شعر رأسه الحليبية الأبيض يرتفع بفخر، حين يسمع على الباب أثناء دخول الكنيسة، أحد السكان يقول لمن حوله «إنّ لدينا قيم منارة محترم، رغم أنه ليس أمريكيا». لكنه يعود فورا بعد القداس إلى جزيرته، يعود سعيدا؛ لأنه مازال لا يمتلك ثقة في البرّ الرئيسي. يقرأ في يوم الأحد أيضا جريدة أسبانية أحضرها من المدينة، أو جريدة «نيويورك هيرالد»، التي استعارها من «فالكونبريدج»، وقرأ فيها بشغف أخبارا أوربية. ذلك القلب المسكين في برج المنارة، في نصف آخر من الكرة الأرضية، مازال يخفق حتى الآن حنينا إلى مسقط رأسه. وأحيانا أيضا، عندما يحضر القارب مئونته اليومية وماء إلى الجزيرة، يهبط من البرج ليتحدث مع الحارس «جونسون».

مرّت أسابيع طويلة بهذا الشكل، لم ير أحدا ولم يره أحد. وكانت العلامات الوحيدة، التي تدلّ على أنّ العجوز مازال حيّا، هي اختفاء المؤن التي تركت على الشاطئ، وضوء الفانوس الذي يتأرجح كلّ مساء بنفس الانتظام، الذي كانت تشرق به الشمس في الصباح على مياه تلك المناطق. من الواضح أن العجوز أصبح لامباليا إزاء العالم. لم يكن الحنين إلى الوطن هو السبب، لكن هذا ما حدث فقط؛ لأنه حتى الحنين إلى الوطن آل إلى استسلام. بدأ العالم كلّه الآن وانتهى بالنسبة لـ«شافينسكي» على جزيرته. لقد تنامى تعوّده على الاعتقاد بأنه لن يغادر البرج حتى مماته، ونسي ببساطة أنّ هناك أيّ شيء آخر بخلاف ذلك. علاوة على ذلك أصبح صوفيّا،

وبدأت عيناه الزرقاوان الوادعتان تحملقان مثل عيني طفل، وبدتا كما لو كانتا مثبتتين على شيء بعيد. كان العجوز يفقد الشعور بشخصه، في حضرة محيط بسيط وعظيم بشكل نادر، كان قد بدأ التوقف عن الوجود كفرد، وأصبح مندمجا أكثر وأكثر في البيئة التي طوّقته. لم يعد يفهم أي شيء فيما وراءها، بل كان يشعر فقط بشكل لاواع. أخيرا، بدت له السماء، الماء، صخرته، البرج، مرتفعات الرمال الذهبية، الأشرعة المتنفخة، نوارس البحر، وانحسار وتدفق المدّ، كلّ ذلك كان شكلا لوحدة القوى، روح واحدة هائلة غامضة، وأنّه يغوص في ذلك الغموض، ويشعر أنّه روح تعيش وتهدهد نفسها. إنه يغوص، ويهوي، ناسيا نفسه. واكتشف راحة عظيمة جدا في ذلك الوجود الذاتي الفردي الضيّق، نصف يقظ، نصف نائم، لدرجة تشبه تقريبا نصف موت.

الفصل الثالث

ثم جاءت الصحوة.

ذات يوم معيّن، عندما أحضر القارب ماء وإمدادًا ومؤنًا، هبط «شافينسكي» من البرج بعد ساعة، ورأى أنّه إلى جانب الحمولة المعتادة كان هناك طرد إضافي. كانت هناك طوابع بريد من الولايات المتحدة على الطرد من الخارج، والعنوان «شافينسكي، اسبينول» مكتوبا على قماشة قنب الطرد الخشنة.

قطع العجوز قماشة القنب الخشنة بفضول متزايد، ورأى كتبا. أخذ واحدا في يده، نظر فيه، وأعاده. عندئذ بدأت يداه ترتعشان بشدّة. غطّى عينيه كما لو كان لا يصدّق، بدا الأمر له كما لو كان يحلم. كان الكتاب بولنديا. ما معنى ذلك؟ من يمكن أن يكون مرسل الكتاب؟ من الواضح، أنّ ذلك لم يحدث له في اللحظة الأولى منذ بداية عمله في المنارة، كان قد قرأ الهيرالد، مستعارة من قنصل التجمّع البولندي في نيويورك. ثمّ أرسل فورا إلى ذلك التجمع نصف شهر من راتبه، لم تكن له به حاجة في البرج. أرسل التجمّع له تلك الكتب مع الشكر. جاءت الكتب بالطريق الطبيعي، لكن للوهلة الأولى لم يستطع العجوز الإلمام بتلك الأفكار. كتبا بولندية في «اسبينول»، على برجه، وسط عزلته .. كان ذلك بالنسبة له شيئا غير مألوف، نفس معيّن من أزمنة غابرة، نوع من معجزة. الآن، بدا له، مثل أولئك البحارة في الليل، أنّ شيئا كان يناديه بالاسم بصوت محبوب بشدّة، ومنسيّ تقريبا. جلس لوهلة مغمض العينين، يكاد يكون متأكدا، أنه عندما يفتحهما، سيكون الحلم قد ولّى.

يفتح الطرد، ينبسط أمامه، اتضح ما بداخله بوضوح بواسطة شمس ما بعد الظهيرة، ومن بينها كان هناك كتاب مفتوح. حين مدّ العجوز يده نحوه ثانية، سمع وسط السكون دقات قلبه. تطلع إليه، كان شعرا! ظهر العنوان مطبوعا من الخارج بأحرف كبيرة، وتحته اسم الشاعر. لم يكن الاسم غريبا على «شافينسكي». رأى أنه يخصّ «ميكيويتز»، أعظم شعراء بولندا. قرأ إنتاجه عام 1830 في باريس. وسمع، فيما بعد، خلال الحملات على الجزائر وأسبانيا، من أبناء بلده عن الشهرة المتنامية للمتنبئ العظيم، لكنه كان معتادا على بندقية الموسكيت، في ذلك الوقت لدرجة أنه لم يأخذ أيّ كتاب معه. ذهب عام 1849 إلى أمريكا، وفي حياة المغامرات التي عاشها قلما التقى بشخص بولندي، كما لم يلتق بأيّ كتاب بولندي على الإطلاق. ولذلك، انتقل مع تلهف أعظم إلى صفحة العنوان، ومع دقات قلبه الحيّة، بدا له العنوان عندئذ كأنّه صخرته الوحيدة، وكان هناك بعض تأرجح على وشك أن يحدث. لقد كانت لحظة سكون عظيم، وصمت. كانت ساعات «اسبينول» تدق معلنة الخامسة فيما بعد الظهر. لم يعكّر صفو السماء الصافية، سوى عدّة نوارس كانت تبحر عبر الهواء. كان المحيط كما لو كان مهدا للنوم. تلعثمت الأمواج على الشاطئ بهدوء، منتشرة بنعومة على الرمال. بدت منازل اسبينول البيضاء، على المدى، ومجموعات النخيل المدهشة، تبتسم. كان هناك في الحقيقة شيء جاد، هادئ، مليء بالكرامة. فجأة وسط هدوء الطبيعة ذاك، سمع صوت العجوز المرتعش، وهو يقرأ بصوت مرتفع، كما لو كان ليفهم بنفسه بشكل أفضل:

«أنت طريق مزدهر، أوه يا أرض مولدي ليتوانيا!

كم علينا أن نقدّرك، فأنت الوحيدة التي يعرف من فقدك

خاصة جمالك في زينة اكتماله خلال هذا اليوم

إنني أرى وأصف؛ لأنني أتوق إليك»

خان الصوت «شافينسكي»، وبدأت الحروف تتراقص أمام عينيه، لقد انفجر شيء في صدره وانداح مثل موجة في قلبه إلى أعلى وأعلى، خانقا صوته، وضاغطا على حلقه. سيطر على نفسه بعد لحظة أخرى، واستطرد في القراءة:

«أيتها السيدة المقدسة، الأكثر حماية

أنت التي أعدت لي الصحة في طفولتي

عندما جلست أمي تحتك باكية تنشد رعايتك

رفعت عينيّ لأعلى فاقدا الحياة

ومشيت فورا إلى أعتابك المقدسة

لأحمد الله على الحياة التي ردّت لي

لذا ما من عجب أن تعيدينا الآن إلى القلب من مسقط رأسنا»

اخترقت الموجة المنتفخة قيد إرادته. انتحب العجوز، رمى نفسه أرضا، واختلط شعره البني الأبيض مع رمال البحر. لقد مضت أربعون عاما منذ أن رأى وطنه، ويعلم الله كم مضى منذ أن سمع لهجة أبناء وطنه، والآن جاءت تلك اللهجة بنفسها.. مبحرة عبر المحيط، ليعثر عليها في عزلته، في

نصف آخر من الكرة الأرضية .. كم هي محبوبة، كم هي عزيزة، وكم هي جميلة! لم يكن هناك ألم في النشيج الذي هزّه هناك .. بل ثار فجأة حبّ هائل، بدت في حضرته تلك الأشياء الأخرى كما العدم. مع ذلك البكاء العظيم، نشد الغفران ببساطة من ذلك المحبوب الوحيد، الذي وضعه جانبا؛ لأنه ازداد كبرا، وأصبح معتادا على ملجئه الانفرادي، ونسي وطنه تماما لدرجة أنّ الشوق إليه بدأ يتلاشى. لكنه عاد الآن كما لو كان بمعجزة. لذلك عاد قلبه يخفق ثانية.

تلاشت اللحظات واحدة وراء أخرى، إنه يرقد هناك باستمرار. طارت النوارس فوق المنارة، صائحة كما لو لتنبه صديقها العجوز. جاءت الساعة التي كان يغذيها فيها ببقايا طعامه، لذلك طار بعض منها من المنارة إليه، ثم جاء المزيد والمزيد، وبدأت تلتقط وتهز أجنحتها فوق رأسه. أيقظه صوت رفيف أجنحتها. كان قد بكى انشغاله، وأصبح لديه الآن هدوء مؤكد وإشراق، وكانت عيناه كما لو كانتا قد ألهمتا. منح كلّ مخزونه دون قصد للطيور التي اندفعت إليه بضجّة بينما تناول بنفسه الكتاب من جديد. كانت الشمس قد غربت الآن وراء حدائق وغابات بنما، ومضت ببطء وراء البرزخ إلى المحيط الآخر. لكن الأطلسي كان مازال مليئا بالضوء، وفي الهواء الطلق كانت الرؤية هناك لا تزال ممكنة؛ لذلك قرأ مزيدا:

«الآن، أحمل روحي المشتاقة إلى منحدرات الغابة، إلى تلك المروج الخضراء»

أخيرا طمس الغسق الحروف على الورقة البيضاء .. غسق قصير مثل ومضة. أراح العجوز رأسه على صخرة، وأغلق عينيه. ثم أخذ الشعر روحه،



ونقلها إلى «*تلك الميادين الملونة بحبّات مختلفة*». وكانت السماء تحترق بشرائط طويلة، حمراء وذهبية، وكان يطير على هذا البريق إلى مناطقه الحبيبة. كانت غابات الصنوبر تضجّ في أذنيه، وتغمغم جداول موطنه. رأى كلّ شيء تماما كما كان، وراح كل شيء يسأله «ألا تتذكر؟» وكان يتذكّر! كان يرى حقولا واسعة، وبين الحقول، غابات وقرى. إنه الليل الآن. في هذه الساعة، كان فانوسه يضيء عادة ظلمة البحر، لكنه الآن في قريته الوطنية. سقط رأس العجوز على صدره، وراح يحلم. تمرّ الصور أمام عينيه بسرعة، وبقليل من الفوضى.. إنه لا يرى البيت الذي ولد فيه؛ لأنّ حربا دمرته. إنه لا يرى أباه وأمه؛ لأنهما ماتا حين كان طفلا. لكن القرية لا تزال كما كانت عندما تركها بالأمس .. خط الأكواخ مع أضواء في النوافذ، التلّ، الطاحونة، البركتان إحداهما عكس الأخرى، وهدير جوقة الضفادع طوال الليل. ذات مرة كان في حراسة طوال الليل بتلك القرية. انتصب الآن ذلك الماضي أمامه مرّة واحدة في سلسلة من مشاهد. رجع «حارسا» مرة أخرى، يقف هناك في الحراسة، على مسافة من الفندق، ينظر بعينين مصابتين بدوار. كان هناك هدير وغناء وصياح وسط صمت الليل مع أصوات الكمان والباص «آه - ها! آه - ها!». ثم يضرم الحراس نارا بحذوات خيولهم، وهو شيء متعب هناك على حصانه. تمضي الساعات ببطء، وأخيرا تطفأ الأنوار. والآن بقدر ما تستطيع العين أن ترى. هو سديم، سديم مستغلق. الآن، يرتفع ضباب، بوضوح من الحقول، معانقا كلّ العالم بسحابة بيضاء. قد تقول، محيطا كاملا. لكن تلك مجرّد حقول، وسرعان ما يسمع في الظلام طائر السلوى، وتتصايح طيور الواق من الأدغال. الليل هادئ وبارد .. ليل بولندي حقيقي! ومن

مسافة تضجّ غابة الصنوبر دون رياح، مثل تموّج البحر. وسرعان ما يلوّن الفجر الشرق باللون الأبيض. في الحقيقة، بدأت الديوك تصيح من وراء أسيجة الشجيرات. يجيب أحدها الآخر من كوخ إلى كوخ، تصرخ دقات ناقوس في مكان ما في العلا. يشعر الحارس بشعور حسن وبهيج. لقد تحدث شخص ما عن معركة الغد. هاي! إنها ستقع، مثل كلّ الأخريات، مع صياح، برفرفة الرايات. تعزف الدماء الشابة مثل ترمبيت. رغم أن الليل يهدئها. كان الفجر يبزغ، يشحب الليل فعلا، وبعيدا عن الظلال تبزغ غابات، أجمات، صفّ من أكواخ، الطاحونة، وخشب الحور. يصرّ ينبوع مثل راية معدنية في برج. يا لها من أرض محبوبة، جميلة في ضوء أشعة الشمس الوردية في الصباح! أوه، أرض الفرد، أرض الفرد!

هدوء!! يسمع الحارس المنتصب شخصا يقترب. إنهم جاءوا، بطبيعة الحال، كي يريحوا الحارس.

فجأة يسمع صوت ما فوق «شافينسكي» ..

- هيا، أيها العجوز! انهض! ماذا يحدث؟

يفتح العجوز عينيه، وينظر متعجّبا إلى الشخص الواقف أمامه. تتصارع بقايا رؤى الحلم في رأسه مع الواقع. أخيرا تبهت الرؤى وتتلاشى. يقف «جونسون»، حارس الميناء أمامه..

- ما هذا؟

يسأل جونسون، ثم يستطرد:

- هل أنت مريض؟

- لا

- إنك لم تضيء الفانوس. ينبغي أن تترك مكانك. لقد تحطّمت باخرة من سانت جرومو وغرقت على الحاجز. لحسن الحظ، لم يغرق أحد، وإلاّ كنت ستحاكم. هيّا إلى القارب معي، ستسمع البقية من القنصل»

شحب العجوز، كان لم يضيء الفانوس فعلا تلك الليلة.

بعد عدة أيام، شوهد «شافينسكي» على سطح باخرة، كانت تتجه إلى نيويورك. لقد فقد الرجل المسكين مكانه. وها قد انفتحت أمامه طرق جديدة للتجوّل، لقد حملته الريح على الكفّ عن النظر إلى تلك الورقة، كي تدوّم مرة أخرى فوق أراض وبحار، لتلهو بها حتى ترضى. لقد أخفق العجوز تماما خلال عدّة أيام، وانحنى كلية، كانت عيناه فقط تتألقان. في طريق حياته الجديد، أمسك إلى صدره كتابه، الذي كان يضغط عليه بيده بين آونة وأخرى، كما لو كان يخشى أن يضيع منه مجددا.

القط الذي يمشي وحيدا

تعالوا واستمعوا وأنصتوا لهذا الذي وقع وأصبح وكان. آه يا أعزّ الأحبّة، حدث ذلك عندما كانت الحيوانات الأليفة جامحة. كان الكلب جامحا، والحصان جامحا، والبقرة جامحة، والماشية جامحة، والخنزير جامحا – جامحة بأقصى ما يمكن أن تكون وتوغلت في الغابات البرية الرطبة بذراتها الجامحة. لكن كان القط هو الأكثر جموحا بين تلك الحيوانات الجامحة. كان يمشي وحيدا، وكانت كلّ الأماكن سواسية بالنسبة إليه.

بطبيعة الحال، كان الإنسان جامحا بشكل مريع أيضا. لم يبدأ في التواؤم حتى قابل امرأة أخبرته أنها لا تحبّ الحياة بأساليبه البدائية. اختارت كهفا جافا جميلا تستلقي فيه بدلا من كومة أوراق شجر رطبة، وأضرمت في الحطب نارا في الجزء الخلفي من الكهف، وعلقت عبر فتحة الكهف جلد حصان جاف ذيله إلى أسفل، وقالت:

– **امسح قدميك، يا عزيزي حين تدخل، حتى نحافظ على نظافة السكن.**

في تلك الليلة، يا أعزّ الأحبة، تناولا خروفا مشويّا على حجارة ساخنة، متبّلا بثوم وفلفل برّي، وبطة محشوة بأرز برّي وحلبة وكزبرة برّية، ونخاع عظام ثور برّي، وكرز ورمّان برّي. أخلد الرجل للنوم أمام النار وهو في

غاية السعادة، وجلست المرأة تمشّط شعرها. ثم تناولت عظمة كتف ضأن – عظمة كبيرة مستوية دسمة – ونظرت إلى العلامات الرائعة عليها، وألقت مزيدا من الحطب في النار وصنعت سحرا. أجرت أول سحر في العالم.

تجمّعت الحيوانات البرّية في الخارج وسط الغابات الرطبة، حيث أمكنها أن ترى ضوء نار بعيد المنال، وتساءلت عمّا يعنيه.

عندئذ ضرب الحصان البرّي الأرض بقوائمه البرّية، قائلا:

– أوه، أيّها الأصدقاء، أوه أيّها الأعداء، لماذا صنع الرجل والمرأة ذلك الضوء في ذلك الكهف العظيم؟ وما الضرر الذي سيسببه لنا؟

شمخ الكلب بأنفه، تنسّم رائحة شواء الضأن، وقال:

– سأذهب لأرى وأبحث وأحكي لأنني أعتقد أنّه أمر طيّب. أيّها القط، تعال معي.

قال القط:

– نيني. إنني القط الذي يمشي وحيدا، وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي. لن أذهب معك.

– إذن، لن نكون صديقين مرّة أخرى.

قال الكلب البرّي ذلك، وخبّ إلى الكهف. لكن عندما قطع الكلب جزءا من الطريق، قال القط لنفسه: «إنّ كلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي. لماذا لا أذهب وأرى وأبحث وفق ما يروق لي».

هكذا انزلق وراء الكلب البرّي بهدوء شديد، مخفيا نفسه، حتى يستطيع سماع كلّ شيء. حين وصل الكلب إلى مدخل الكهف، رفع جلد الحصان الجاف بأنفه، وتنسّم رائحة شواء الضأن الجميلة، وإذا المرأة تسمعه وهي تنظر إلى شفرة عظمة الضأن، فضحكت قائلة:

- ها قد ظهر أولّ الوافدين. أيّها المخلوق البرّي القادم من الغابات البرّية، ماذا تريد؟

أجاب الكلب البرّي:

- أوه يا عدوّتي وزوجة عدوّي، ما هذا الشيء الذي يفوح برائحة طيبة في الغابات البرّية؟

عندئذ التقطت المرأة عظمة ضأن مشوية، ورمت بها إلى الكلب، فقال:

- أوه يا عدوّتي، وزوجة عدوّي، امنحيني أخرى.

قالت المرأة:

- أيها المخلوق البرّي، القادم من الغابات البرّية، ساعد رجلي على الصيد نهارا واحرس كهفه ليلا، وسأمنحك عددا من عظام مشوية بقدر ما تحتاج.

أنصت القط، وعقب: «آه ! يا لها من امرأة شديدة الحكمة، لكنها ليست شديدة الحكمة مثلي».

زحف الكلب البري إلى الكهف، ووضع رأسه في حجر المرأة، قائلا:

- أوه يا صديقتي وزوجة صديقي، سأساعد زوجك على الصيد نهارًا وأحرس كهفك ليلًا.

أنصت القط، ثم عقب «آه، يا له من كلب غاية في الغباء»، وانصرف عبر الغابات البرّية الرطبة ملوّحا بذيله، مصاحبا نفسه البرّية الوحيدة. لكنه لم يخبر أحدا بما جرى.

عندما استيقظ الرجل تساءل:

- ماذا يفعل الكلب البرّي هنا؟
- لم يعد اسمه كلب بري بعد الآن، بل الصديق المفضّل؛ لأنّه سيكون صديقنا الدائم. اصحبه معك أثناء ذهابك إلى الصيد.

قطفت المرأة من المروج المروية ملء ذراعيها أعشابا طازجة خضراء، وجففتها أمام النار حتى فاحت رائحتها مثل قشّ محصود حديثا، ثم جلست عند مدخل الكهف، وقد جهّزت رسنا من أجل الحصان، ونظرت إلى عظام كتفه الكبيرة – العريضة الممتدة على نطاق واسع – وأجرت سحرا، ثاني سحر في العالم.

تساءلت كلّ الحيوانات المفترسة في الخارج في الغابات البرّية عمّا حدث للكلب البري، وأخيرا ضرب الحصان البرّي الأرض بقدمه، قائلا:

- سأذهب وأرى وأعرف السبب في عدم عودة الكلب البرّي. أيّها القط، تعال معي.

أجاب القط:

- نيني. إنني القط الذي يمشي وحيدا، وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي.. لن أذهب معك.

لكنه تبع الحصان البرّي بهدوء شديد مادامت كلّ الأماكن سواسية بالنسبة إليه، واختبأ في مكان يستطيع منه سماع كلّ شيء.

عندما سمعت المرأة الحصان البري يتوقف ويتعثر في عرفه الطويل، ضحكت قائلة:

- ها قد جاء الثاني. أيها الحيوان البرّي القادم من الغابات، ماذا تريد؟

أجاب الحصان البري:

- أوه يا عدوتي وزوجة عدوي، أين الكلب البرّي؟

ضحكت المرأة، والتقطت عظمة كتف الضأن، ونظرت إليها قائلة:

- أيها الحيوان البرّي القادم من الغابات البرّية، إنك لم تأت إلى هنا من أجل الكلب البري، بل من أجل العشب الطيّب.

توقف الحصان البرّي وتعثر في عرفه الطويل، قائلا:

- هذا صحيح، فلتعطني عشبًا آكله.

قالت المرأة:

- أيها الحيوان البرّي القادم من الغابات البرّية. احن رأسك البرّية وارتد ما أمنحك، فتأكل عشبا طيّبا ثلاث مرات كلّ يوم.

أنصت القط، وعقب «أوه، هذه امرأة ذكية، لكنها ليست ذكية مثلي».
أحنى الحصان البرّي رأسه البرّية، فألقت المرأة فوقه لجاما خفيا مطويّا، وقدّمت له عشبا طيّبا، فقال:

- أوه، يا سيدتي وزوجة سيدي، سأكون خادمك من أجل العشب الطيّب.

أنصت القط، وعقب «أوه، ذلك حصان غاية في الحماقة». ورجع عبر الغابات الرطبة هازا ذيله ماشيا وحده. لكنه لم يخبر أحدا على الإطلاق.

تساءل الرجل حين رجع من الصيد:

- ماذا يفعل الحصان البرّي هنا؟

أجابت المرأة:

- لم يعد اسمه حصانا برّيا بعد الآن، بل الخادم المفضّل؛ لأنّه سينقلنا من أيّ مكان إلى آخر.

وفي اليوم التالي، رفعت البقرة البرية رأسها البرية عاليا خشية أن تشتبك قرونها بالأشجار البرّية حتى وصلت إلى الكهف، وتبعها القط مخفيا نفسه تماما كما حدث من قبل، وحدثت كلّ الأشياء تماما كما حدثت من قبل، وعقب القط بنفس الكلمات كما سبق، وعندما وعدت البقرة البرية أن تمنح حليبها للمرأة كلّ يوم مقابل العشب الرائع، رجع القط عبر الغابات البرية الرطبة هازا ذيله البري سائرا بمفرده، تماما كما حدث في السابق، لكنه لم

يخبر أيّ فرد أبدا. وحين رجع الرجل والحصان والكلب من الصيد، سأل نفس الأسئلة كما في السابق، فقالت المرأة:

- لم يعد اسمها بقرة برّية بعد الآن، بل «مانحة الطعام الطيب»؛ لأنها ستمنحنا لبنا أبيض دافئا باستمرار، وسأتولى رعايتها عندما تخرج للصيد مع الصديق المفضّل والخادم المفضّل.

انتظر القط في اليوم التالي أن يرى أيّ حيوان برّي قد يصل الكهف، لكن لم يتحرّك أيّ حيوان من الغابات الرّطبة؛ لذلك مشى القط بنفسه إلى هناك فرأى المرأة تحلب البقرة، ورأى ضوء النار في الكهف، وتنسّم رائحة الحليب الأبيض الدافئ. قال القط للمرأة:

- أوه يا عدوّتي وزوجة عدوّي، أين ذهبت البقرة البرّية؟

ضحكت المرأة وقالت:

- أيها الحيوان البرّي القادم من الغابات البرّية، فلتمض ثانية إلى الغابات لأنني ضفرت شعري، وقد أبعدت عظام سحري، ولم تعد لدينا حاجة لأصدقاء أو خدم آخرين.
- إنني لست صديقا ولست خادما. إنني القط الذي يمشي وحيدا، وأتمنى أن أدخل إلى كهفك.
- إذا، لماذا لم تأت مع الصديق في الليلة الأولى؟

غضب القط بشدّة وتساءل:

- هل حكى الكلب البرّي حكايات عني؟

ضحكت المرأة، وقالت:

- أيّها القط الذي يمشي وحيدا، وتعتبر كلّ الأماكن سواسية بالنسبة إليك، ولست صديقا ولا خادما، وهو ما قلته بنفسك، فلتنصرف وتمشى بنفسك في كلّ الأماكن المتشابهة.

تظاهر القط بالأسف، وتساءل:

- ألن أدخل الكهف أبدا؟ ألن أجلس أبدا إلى جوار النار الدافئة؟ ألن أشرب أبدا حليبا أبيض؟ إنك شديدة الحكمة شديدة الجمال. لا ينبغي أن تكوني قاسية حتى على قط.

قالت المرأة:

- أعرف أنني حكيمة، لكنني لم أكن أعرف أني جميلة؛ لذلك سأعقد صفقة معك. إذا قلت كلمة واحدة في مدحك فيمكنك أن تدخل الكهف.

فتساءل القط:

- وإذا قلت كلمتين في مدحي؟
- لن أفعل ذلك أبدا. لكن لو قلت كلمتين في مدحك فيمكنك أن تجلس قرب النار في الكهف.

فتساءل القط ثانية:

- وإذا قلت ثلاث كلمات؟

- لن أفعل ذلك أبدا. لكن لو قلت ثلاث كلمات في مدحك فيمكنك أن تشرب الحليب الأبيض الدافئ ثلاث مرات يوميا باستمرار.

قوّس القط ظهره، وقال:

- أنزلي الآن الستار على مدخل الكهف، وأشعلي النار في خلفيته، ولتظلّ آنية الحليب إلى جوار النار، ولتتذكري ما قلت يا عدوّتي وزوجة عدوّي.

ومضى مبتعدا عبر الغابات البرّية الرطبة هازا ذيله، ماشيا وحده.

حين عاد الرجل في تلك الليلة مع الحصان والكلب من الصيد، لم تخبره المرأة بأمر الصفقة التي أبرمتها مع القط؛ لأنّها كانت تخشى ألا تروق له.

مضى القط بعيدا بعيدا، وخبّأ نفسه المتوحّدة فترة طويلة في الغابات البرّية الرطبة حتى نسيت المرأة كلّ ما كان من أمره. وحده هو الخفاش - خفاش صغير معلق من أعلى إلى أسفل - بداخل الكهف، عرف أين اختبأ القط، وكان يطير كلّ ليلة إليه بأخبار ما حدث. وذات مساء قال الخفاش:

- هناك طفل رضيع في الكهف. إنّه مولود جديد متورّد بدين، والمرأة شديدة الولع به.

أنصت القط، ثم قال:

- آه، لكن بماذا يولع الطفل؟

- إنه مولع بالأشياء الليّنة المدغدغة. مولع بالأشياء الدافئة يحتضنها بذراعيه عند النوم. مولع بمن يلعب معه. إنه مولع بكلّ هذه الأشياء.

أنصت القط، ثم قال:

- حسنا، لقد حان دوري.

مشى القط في الليلة التالية عبر الغابات البرّية الرطبة، واختبأ قريبا جدا من الكهف حتى حلّ الصباح، وذهب الرجل والكلب والحصان إلى الصيد. كانت المرأة مشغولة بالطبخ في ذلك الصباح، وبكى الطفل وقاطع عملها؛ لذلك حملته إلى خارج الكهف، وأعطته حفنة من الحصى يلعب بها. لكن الرضيع استمرّ في البكاء، عندئذ مدّ القط مخلبه البارز وربت على وجنة الطفل بهدوء، وحكّ ركبتيه السمينتين، ودغدغه بذيله أسفل ذقنه البدين، فضحك الرضيع وسمعته المرأة وابتسمت.

عندئذ قال الخفاش الصغير - المعلق من أعلى لأسفل - عند فتحة الكهف:

- آه يا مضيفتي وزوجة مضيفي، وأم ابن مضيفي، هناك حيوان برّي من الغابات البرّية يلعب مع طفلك بشكل رائع.

قالت المرأة، وهي تصلب ظهرها:

- ليبارك ذلك الحيوان البرّي مهما يكن؛ لأنّي كنت مشغولة هذا الصباح فأسدى لي خدمة.

في تلك اللحظة الدقيقة المحددة، يا أعزّ حبيب، جذب القط ستارة جلد الحصان الجاف لأسفل وأسقطها عند مدخل الكهف لأنّ المرأة تذكّرت



الصفقة التي عقدتها مع القط، وحين ذهبت لتلتقط الستارة كان القط يجلس مستريحا تماما داخل الكهف، وهو يقول:

- آه يا عدوّتي وزوجة عدوّي. إنه أنا من ذكرت كلمة مديح عنه، ولذلك يمكنني الآن أن أجلس داخل الكهف دائما ودائما ودائما. لكنني ما أزال القط الذي يمشي وحيدا، وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي.

كانت المرأة غاضبة بشدّة فزمّت شفتيها بإحكام، وبدأت تدير عجلة غزل النسيج. لكن الطفل بكى لأنّ القط ابتعد عنه، ولم تستطع المرأة أن تهدهده؛ لأنّه كان يقاوم ويرفس وقد احتقن وجهه. قال القط:

- آه يا عدوّتي وزوجة عدوّي وأم عدوّي. خذي خيطا من الخيوط التي تغزلينها واربطيه إلى مغزل النسيج، واجذبيه على امتداد الأرض، وسأريك سحرا سيجعل طفلك يضحك عاليا بينما هو يبكي الآن.

قالت المرأة:

- سأفعل ذلك لأنني «غلب حماري»، لكنني لن أشكرك لذلك.

ربطت الخيط إلى عجلة مغزل صغيرة، وسحبته على الأرض، وجرى القط وراءه وربت عليه بمخالبه، ودحرج رأسه فوق كعبيه، وألقاه للوراء فوق كتفه، وطارده بين خلفية ساقيه، وتظاهر بأنه يفقده، وحطّ بثقله ثانية عليه حتى ضحك الرضيع بصوت عال كما لو كان يبكي، وسارع يقتفي أثر القط، وانتشر مرحه في جميع أنحاء الكهف حتى تزايد تعبه فسكن مستقرا لينام والقط بين ذراعيه. فقال القط:

- الآن سأغني للرضيع أغنية ستبقيه نائما لمدة ساعة.

وبدأ القط يخرخر بصوت عال تارة ومنخفض تارة أخرى ثم بصوت منخفض يرتفع تدريجيا، حتى استغرق الطفل في النوم سريعا. ابتسمت المرأة أثناء تطلعها إلى الاثنين معا، وقالت:

- هذا فعل رائع. لا جدال في أنك شديد المهارة، أيها القط.

في تلك اللحظة والدقيقة المحددة، يا أعز حبيب، هبط دخان نار من سحب السطح في مؤخرة الكهف لأنّ المرأة تذكّرت الصفقة التي عقدتها مع القط، وحين انحسر الأمر كان القط قد جلس مستقرا تماما قريبا من النار، وهو يقول:

- آه يا عدوّتي وزوجة عدوّي وأم عدوّي. هأنا ذا؛ لأنّك تحدثت بكلمة ثانية في مديحي، وهكذا يمكنني أن أجلس إلى جانب النار الدافئة في مؤخرة الكهف دائما ودائما ودائما. لكنني لا أزال القط الذي يمشي وحيدا وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي.

استشاطت المرأة غيظا، فأسدلت شعرها، ووضعت مزيدا من الحطب في النار، وأخرجت عظمة كتف الضأن العريضة، وبدأت تصنع سحرا يمنعها من أن تنطق بكلمة مديح ثالثة عن القط. لم يكن سحرا غنائيا، يا أعز حبيب، لكنه كان لا يزال سحرا، تزايد بثبات قريبا من الكهف لدرجة أن فأرا صغيرا تسلل من الركن وجرى عبر الأرض، فقال القط:

- آه يا عدوّتي وزوجة عدوّي وأم عدوّي. هل كان ذلك الفأر الصغير جزءا من سحرك؟

- أوه شي! ذلك ليس صحيحا.

قالت المرأة ذلك وأسقطت عظمة كتف الضأن العريضة، وقفزت واقفة على قدميها أمام النار، وراحت تضفر شعرها بسرعة خوفا من أن يصعد عليه الفأر. قال القط وهو يراقب ما يجري:

- أوه. لن يقع عليّ أيّ ضرر إذا ما أكلت الفأر؟

قالت المرأة وهي تجدل شعرها لأعلى:

- هيّا التهمه بسرعة، وسأكون دائمة الامتنان لك.

قفز القط قفزة واحدة فأمسك بالفأر الصغير، فقالت المرأة:

- مائة شكر. حتى صديقنا المفضّل لن يكون بهذه الكفاءة للإمساك بفأر صغير كما فعلت. لابد أنك شديد الحكمة.

في تلك اللحظة الدقيقة المحددة، يا أعز حبيب، انشطر وعاء اللبن الكائن بجوار النار إلى شطرين؛ لأنّ المرأة تذكّرت الصفقة التي عقدتها مع القط، وعندما انتفضت المرأة واقفة على قدميها كان القط يلعق اللبن الأبيض الذي استقرّ في واحدة من القطع المكسورة، وهو يقول:

- آه يا عدوّتي وزوجة عدوّي وأم عدوّي. ذلك هو أنا؛ لأنك نطقت بثلاث كلمات في مديحي. والآن يمكنني أن أشرب اللبن الدافئ ثلاث مرات يوميا باستمرار. لكنني لا أزال القط الذي يمشي وحيدا، وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي.

عندئذ ضحكت المرأة ووضعت للقط وعاء من اللبن الأبيض الدافئ، وهي تقول:

- آه أيها القط، إنّك ذكي مثل الإنسان، لكن تذكّر أن صفقتك لم تنعقد مع الرجل أو الكلب، ولا أدري ما سيفعلان حين يعودان إلى البيت.
- ماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟ إذا ما أخذت مكاني في الكهف إلى جوار النار، وتناولت لبني الدافئ ثلاث مرات يوميا، فلا أبالي بما يمكن أن يفعله الرجل أو الكلب لي.

حين رجع الرجل والكلب ذلك المساء إلى الكهف، حكت الزوجة لهما كلّ قصة الصفقة بينما كان القط جالسا يبتسم إلى جوار النار. عندئذ قال الرجل:

- نعم، لكنه لم يعقد صفقة معي أو مع كلّ الرجال من بعدي.

ثم تناول فردتي حذائه الجلدي ذي الرقبة وفأسا حجريا صغيرا (مجموعها ثلاثة) وجلب قطعة خشب، وفأسا صغيرا (أصبح مجموعها خمسة)، ووضعها في صف، وهو يقول:

- الآن سنعقد صفقتنا. إذا لم تصطد الفئران باستمرار وأنت في الكهف، فسوف أرميك بهذه الأشياء الخمسة كلما شاهدتك، وهكذا سيفعل كلّ الرجال من بعدي.

بعد أن أنصتت المرأة، قالت: «آه. هذا القط ذكي جدا، لكنه ليس بذكاء رجلي».

أحصى القط الأشياء الخمسة (بدت جميعا مكسوّة بعقد خشبية)، وقال:

- سأصطاد الفئران باستمرار عندما أكون في الكهف، لكنني لا أزال القط الذي يمشي وحيدا وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي.

استطرد الرجل يقول:

- ليس عندما أكون قريبا، حتى لو وضعت كلّ هذه الأشياء بعيدا باستمرار؛ لذا سأرمي عليك كلما قابلتك زوج حذائي وفأسي الحجري (التي تجمع ثلاثا). وهكذا سيفعل كلّ الرجال من بعدي.

قال الكلب:

- انتظر لحظة. إنّه لم يعقد صفقة معي أو مع كلّ الكلاب من بعدي.

ثم أظهر الكلب أسنانه وقال:

- إذا لم تكن طيّبا باستمرار مع الرضيع حين أكون في الكهف، سأطاردك حتى أمسكك، وحين أمسكك سأعضّك، وهو ما ستفعله كلّ الكلاب من بعدي.

قالت المرأة بعد أن أنصتت:

- هذا قط شديد الذكاء، لكنه ليس بذكاء الكلب.

أحصى القط أسنان الكلب التي بدت مستدقة الرأس، وقال:

- سأكون طيّبا مع الرضيع حين أكون في الكهف مادام أنه لا يجذب ذيلي بشدة باستمرار، لكنني لا أزال القط الذي يمشي وحيدا وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة لي.

قال الكلب:

- ليس عندما أكون قريبا، فلم أقل إنني سأستمر مغلقا فمي باستمرار، لكنني سأطاردك كلما قابلتك حتى تصعد إلى أقرب شجرة. وهكذا ستفعل كلّ الكلاب من بعدي.

عندئذ ألقى الرجل فردتي حذائه وفأسا حجريا صغيرا (تلك التي تجمل ثلاثة) على القط، فهرب القط من الكهف، فطارده الكلب حتى صعد إلى شجرة.

ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، يا أعزّ حبيب، فإن ثلاثة رجال من خمس يرمون دائما أشياء على القط أينما شاهدوه، وتطارده كلّ الكلاب حتى يصعد إلى أقرب شجرة، لكن القط سيلتزم بما يخصّه من الصفقة أيضا، سيقتل الفئران وسيكون طيّبا مع الأطفال الرضّع حين يكون في البيت ماداموا لا يجذبونه بشدة من ذيله. لكنه عندما يفعل ذلك، في كلّ الأوقات، وحين يظهر القمر ويأتي الليل، فإنّه يظلّ القط الذي يمشي وحيدا وكلّ الأماكن سواسية بالنسبة إليه. ومن ثمّ يخرج إلى الغابات البرية الرطبة، أو يصعد على الأشجار البرية الرطبة، أو الأسطح البرية الرطبة، هازا ذيله البري، ماشيا وحيدا.

الإنجليزي : صمويل جونسون

راسيلاس : أمير الحبشة

«راسيلاس»، هو الابن الرابع لإمبراطور الحبشة، الأمير ووارث العرش. وتبعا للتقاليد الملكية المتوارثة كان عليه أن يقيم في قصر معزول مع سائر أبناء الملك وبناته، حتى يحين موعد اعتلائه العرش. يقع القصر في واد فسيح يمتد على رابية تعلو سطح بحيرة، وقد أحاطت به من كل جانب جبال تكسو سفوحها الأشجار، ولم يكن للقصر مدخل سوى غار مجوّف تحت سقف عال. أما فتحته التي تفضي إلى الوادي، فقد أغلقها باب حديدي ضخم، لا يمكن فتحه إلا بآلات خاصة. وانسابت نهيرات من جوانب الجبال نشرت الخصب والنماء في الوادي الذي اجتمعت في وسطه بحيرة سكنتها الأسماك. جرى تقسيم القصر إلى وحدات سكنية تتفاوت فخامة ورونقا تبعا لمكانة ساكنيها. كما توارت هناك فجوات بين الأعمدة لا يعلم بوجودها أحد أخفى فيها الملوك كنوزهم، ثم سدّوا تلك الفجوات بقطع من رخام لا ترفع إلا في أقصى حالات الطوارئ وذلك بعد أن دوّنوا سجلا تفصيليا بما جمعوا من كنوز، أخفوه في برج لا يدخله سوى الإمبراطور ومعه الأمير وارث العرش.

أمدّ الوادي ساكنيه بضرورات الحياة، أما الترفيه فكان يفد إليهم بمقدم الإمبراطور في زيارته السنوية التي تستغرق ثمانية أيام، وعندها يفتح الباب الحديدي على أنغام الموسيقى. كان رجال اللهو وبناته يدعون من أقاصي

المملكة؛ ليشيعوا البهجة في تلك الفترة، فيعرض كلّ فنّ جميل، وتعزف أبدع المقطوعات الموسيقية. وخلال فترة الزيارة، كان لأيّ من سكان الوادي أن يقترح ما يشاء من أسباب التسلية والترفيه، للتهوين من تلك العزلة ودفعا للملل.

عاش الأمير وحاشيته في ذلك الوادي، لا يعرفون عن الحياة شيئا إلا التمتع بالراحة والدعة، وتفنن أهل الخبرة في تجميل واقعهم، فلم يحدثوهم إلا عن سوءات الحياة العامة فيما وراء الجبال، ووصفوا لهم تلك الأرض البعيدة بأنها أرض نكبات يتنازع فيها البشر فيما بينهم، ويفترس الإنسان أخاه الإنسان!

***

لكن ما أن بلغ الأمير «راسيلاس» السادسة والعشرين من عمره، حتى وجد في نزهاته الخلوية وتأملاته الهادئة متعة كبيرة وراح يقضي يومه عند ضفاف النهيرات، وهناك يصغي في أمان إلى تغريد الطيور، أو يتأمل الأسماك وهي تلعب في مجرى ماء. لفت ما يحدث أنظار أتباعه إليه، فحاولوا أن يجددوا لديه الرغبة، لكنه ازداد عكوفا على عالمه.

وكان بين حكماء الوادي حكيم عمل لفترة كمعلم للأمير تبعه خلسة آملا أن يظفر بسرّ ضيقه. كان الأمير يتأمل الماعز التي ترعى بين الصخور ويوازن بين حاله وحالها، وتوصّل في النهاية إلى أنّ لديه رغبات خفيّة لا تجد ما يشبعها في هذا المكان، ولن تتحقق سعادته إلا بتحقيق تلك الرغبات.

سعى الحكيم إلى لقاء الأمير راجيا أن يشفيه، فلم يشأ الأمير أن يغضب هذا الرجل الذي أجلّه في الماضي وما زال يكنّ له الحب، فدعاه إلى الجلوس معه على شاطئ النهر. تشجع الحكيم فسرد على مسامعه ما أصابه في الفترة الأخيرة، وتحوّله عن ولائم القصر والتماسه الخلوات الهادئة، فأوضح له الأمير أنه يلتمس الوحدة؛ لأنه شقيّ، وهو لا يحبّ أن يفسد بشقائه سعادة الآخرين.

لم يقتنع الحكيم بما سمع وطلب منه أن يتطلع حوله فكلّ ما هناك طوع بنانه، فردّ الأمير بأن ذلك هو مصدر شقائه؛ لأنه حين يرى الماعز والخراف يطارد بعضها بعضا، تحنّ نفسه إلى شيء يطارده. وانتهى الأمير إلى أن يسأل الحكيم أن يعلمه كيف يقضي نهاره كما كان يقضيه في أيام طفولته يتعلم في كل لحظة شيئا جديدا، فأسقط في يد الحكيم، لكنه استدرك موضحا بأنه لو رأى ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء، لحمد الله على ما هو فيه من نعيم، فأجابه الأمير بأنه يتطلع إلى رؤية ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء ما دامت رؤيتها شرطا من شروط السعادة!

***

وبذلك اعتزم الأمير على الفرار من هذا المعتقل، فرجع سعيدا إلى معاشرة الناس. وكان يجد متعة كبرى في تخيّل ذلك العالم البعيد الخفي.

هكذا قضى «راسيلاس » عشرين شهرا بين أحلامه، وقد اشتعل خياله طوال الوقت بتلك الحياة الجديدة، حتى ألهته عن حياة الوحدة التي يحياها، بل وألهته أيضا عن التفكير في الوسائل التي تساعده على الخروج من هذا الوادي؛ ليختلط بأبناء المجتمع الخارجي المأمول.

انتبه الأمير إلى أن سنتين قد انقضتا، منذ أن اتخذ قرار الفرار فاستقر رأيه على ألا يضيّع من وقته أكثر مما ضيّع، وتحوّل بكل جوارحه إلى اكتشاف وسيلة للهرب من الوادي.

***

كان يحسب أن الهرب سوف يتم بيسر، لكنه اكتشف صعوبة أن يجد طريقا بين الجبال، كما أدرك بأنه حبيس وراء باب حديدي لا يملك إمكانية فتحه بالإضافة إلى حرّاس منتشرين من حوله ليل نهار.

لكنه لم ييأس، فراح يتسلق الجبال أسبوعا تلو أسبوع، لعله يجد بين الشجيرات منفذا. ودرس الكهف، الذي تتدفق منه مياه البحيرة، ورأى جوفه في ضوء الشمس، فإذا الصخور المهشمة تملأ جنباته بشكل متلاصق يسمح بجريان الماء، لكنها لا تسمح بنفاذ الأجسام.

هكذا ضاعت عشرة شهور، وهو يبحث بلا كلل. كان يصحو في الصباح بأمل جديد، ويحمد لنفسه مثابرتها في المساء. كما وجد في البحث ألف متعة ومتعة صرفته عن متاعبه، كما صرفته عن أفكاره. تعرّف خلال تلك الفترة على غرائز الحيوان وخواص النبات، ورأى العجائب تتوالى من حوله فاعتزم أن يتعزى بدراستها رغم خيبة سعيه في الفرار!

***

كان من بين رجال الفن، الذين اجتذبتهم حياة الوادي، رجل اشتهر بين قومه بدرايته الواسعة بعلم الآلات، وقد أفاد الناس ببعض من اختراعاته النافعة. كان «راسيلاس» يزور هذا الصانع بين الحين والحين، وسرّه ما

تعلمه منه من معارف. وفي حوار معه حول الطير والحيوان والإنسان، أوضح الرجل أن الأسماك تسبح في الماء بالفطرة ويسبح الإنسان بالعلم، ومن استطاع العوم كان الطيران في متناوله، ففكر الأمير في إمكانية فراره طائرا، وراح يسأله حول تلك الإمكانية، ففهم منه أن هناك إمكانية أن يطير الإنسان مثل الطير، شريطة أن يكون له جناح مثله، لكن هناك عددا من الصعاب لابد أولا من التغلب عليها حتى يتحقق ذلك الحلم. وكان رأيه أن أنسب جناح للإنسان، هو جناح الخفاش لما فيه من طيّات متصلة.

استغرق صنع الجناحين عامًا، وخرج بهما الصانع في الصباح، ووقف فوق رابية صغيرة، ورفرف بجناحيه قليلا ليستجمع الهواء، ثم وثب من مكانه، لكنه سقط من فوره في البحيرة، وأنقذه الجناحان من الغرق حين ساعداه على الطفو فوق سطح الماء حتى جذبه الأمير إلى الشاطئ، فخرج شاحبا مذعورا.

هكذا فشلت المحاولة، التي كان الأمير يعقد عليها كثيرا من الآمال في الفرار من الوادي!

***

حلّ فصل الأمطار، وتعذر التجوّل في الغابات، ولزم جميع الأمراء القصر بسبب الفيضان، واكتفوا بأسباب اللهو المتوفرة، واستوقفت الأمير «راسيلاس» قصيدة رواها شاعر يدعى «عملاق»، وكان موضوعها الحياة الإنسانية وأحوالها المختلفة، فأمر بأن يمثل بين يديه في جناحه الخاص بعد أن وجد فيه رجلا يعرف طبيعة الحياة معرفة تامة حتى استطاع أن يصوّرها

في قصيدته هذا التصوير البارع، وسأله أن ينشده قصيدة أخرى، ثم تبسّط معه في الحديث، وراح يسأله عمّا يعنّ له من أسئلة، فاطمأن الشاعر إليه، ومضى يسري عنه بكلّ جديد ونافع من ألوان المعرفة حتى طلب منه أن يسرد عليه قصته، فأجاب الشاعر بأنه ولد في مملكة «جوياما» بالقرب من منبع النيل، وكان أبوه تاجرا ثريا يجري تجارته بين موانى البحر الأحمر والأقطار الإفريقية، انصرف كل همّه إلى جمع المال، وحين لاحظ قوة ذاكرته وسرعة بديهته راح يمني نفسه ويمنيه بمستقبل عظيم في عالم التجارة، بل وتنبأ له أكثر من مرّة بأنه سوف يكون أغنى أغنياء الحبشة، وأدخله المدرسة وهو يضع فيه هذا الرجاء. لكن ما أن تذوّق الفتى من نهل المعرفة حتى استصغرت نفسه المال وجامعيه، واعتزم سرّا أن يخيّب أمله فيه. وحين بلغ العشرين من عمره، سأله أن يرحل وراء التجارة، ومنحه رأس مال ضخم، وحذره بأنه في حال إذا ما بدده، فلن يجد مالا غيره، أما لو ضاعفه في أربعة أعوام فسيصبح شريكا له.

تعرف «عملاق» على ربان سفينة من السفن، واغتنم الفرصة ونزح إلى بلاد أخرى. ومضى ينهل خلال أسفاره التي استمرت عشرين عاما من ينابيع المعرفة، ثم قفل عائدا إلى أرض الوطن، حيث وجد أن أباه قد مات بعد رحيله بخمسة أعوام، وأن إخوته اقتسموا ماله، وأن كثرة من معارفه قد طالتهم يد الدهر، أما من بقي منهم، فكان منهم فريق كاد ينساه، وآخر اشمأز من مسلكه معتقدا بأنه قد تطبّع بطباع أجنبية فاسدة. وأعياه ما لقي من إعراض متكرر، وانتظر اليوم الذي يفتح فيه الوادي السعيد أبوابه ليودع دنيا المخاوف والآمال فتقدم بما لديه من إمكانات نالت رضا وقبولا، فأسلم نفسه للعزلة الدائمة.

عندئذ سأله الأمير أن يساعده في الفرار من الوادي، بعد أن فشل في إيجاد أيّ مخرج، وعلى الرغم من أن «عملاق» حذره من أنه سيجد الدنيا في الخارج بحرا متلاطم الأمواج وقد يغمره طوفان العنف، أو يصطدم بصخور الغدر، فقاطعه الأمير بألا يحاول أن يثبط همته، فقد قرّ عزمه مهما تكن نتيجة التجربة.

***

شعر الأمير أنه اكتسب صديقا جديدا له رصيد من التجارب التي تساعده لتحقيق رغبته في الفرار، كما يمكن أن يشركه في كثير من خواطره فيخفف كثيرا من لوعته الصامتة. وفي إحدى نزهاتهما إلى منطقة مجاورة للجبل، لاحظا أن الأرانب التي أخرجها المطر من جحورها، واحتمت بالشجيرات، قد حفرت لنفسها نفقا ترتفع في خط مائل، فأشار «عملاق» إلى أنه لا غضاضة أن نتعلم من الأرانب شيئا، إذا اخترقنا الجبل في نفس الاتجاه، وأحضر «عملاق» الأدوات الصالحة لكسر الأحجار ونقل التراب لحفر نفق، وبدآ العمل وأكملاه في اليوم التالي. وسرعان ما وجدا شقا في الصخرة، أمكنهما أن ينفذا منه إلى مسافة طويلة بغير عناء. وحين بلغا في سعيهما منتصف الطريق، توقفا. وفيما كان الأمير يخرج من النفق لاستنشاق الهواء النقي، إذا به يجد أخته «نكاية» تنتظره عند مدخله فاندهش من وجودها، لكنه قرر أن يصارحها بحقيقة الأمر، فأفضى إليها بكل شيء دون تحفظ، فطلبت أن ترافقهما؛ لأنها سئمت الحياة في هذا السجن.

كان الأمير يحبّ «نكاية» أكثر من حبه لأخواته الأخريات، فوافق على رغبتها، وطلب منها أن تراقب القاصدين إلى الجبل حتى يفرغا من عملهما.

وحين شاهدا ضوءا من وراء الرابية، خرجا إلى قمة الجبل، فأبصرا النيل يجري من تحتهما ضيقا متعرجا، فأيقنا أنهما على الطريق الصحيح.

***

حمل الأمير والأميرة من الجواهر ما يأتيهما بالمال كلما هبطا في مكان فيه تجار، وأرشدهما «عملاق» إلى كيف يخبئان تلك الجواهر بين طيات ثيابهما. وحين اكتمل البدر، خرج ثلاثتهم من الوادي، وكان يتبع الأميرة وصيفة من وصيفاتها، فشقوا طريقهم عبر النفق، ثم راحوا يهبطون إلى الجانب الآخر من الجبل، وسرعان ما انبسط السهل أمامهم. وفي الصباح رأوا نفرا من الرعاة، الذين قدّموا لهم شيئا من اللبن والفاكهة، فأقبلوا على الطعام، ثم مضوا في رحلتهم على مهل مطمئنين إلى أنّ أهل الوادي قد يفتقدونهم، لكنهم لن يستطيعوا أن يتعقبوهم.

وصلوا بعد عدة أيام إلى بقعة آهلة بالسكان، وكان الأمير والأميرة يتابعان ما يريانه من عادات وأعمال الناس. وتعلم الأمير والأميرة شيئا فشيئا أن ينسيا مقامهما الرفيع، وألا ينتظرا من الناس أكثر ممّا يسمح به الأدب والكرم. كما مهّد لهما «عملاق» ما ينتظرهما في الموانئ من صخب التجار، وهبط بهما أخيرا إلى شاطئ البحر.

سرّ الأمير والأميرة بكل ما رأيا، فقد بدا كلّ شيء أمامهما طريفا، ولذا أقاما في الميناء بضعة شهور، دون أن تبدو عليهما الرغبة في الانتقال إلى مكان آخر. لكن حين بدأ «عملاق» يخشى من افتضاح أمرهما، حدد موعدا للرحيل، فانصاعا إلى رأيه صاغرين، فحجز لهما مكانا على ظهر

سفينة وجهتها السويس، وكانت الرحلة سريعة، ولما بلغوها انتقلوا سريعا إلى القاهرة.

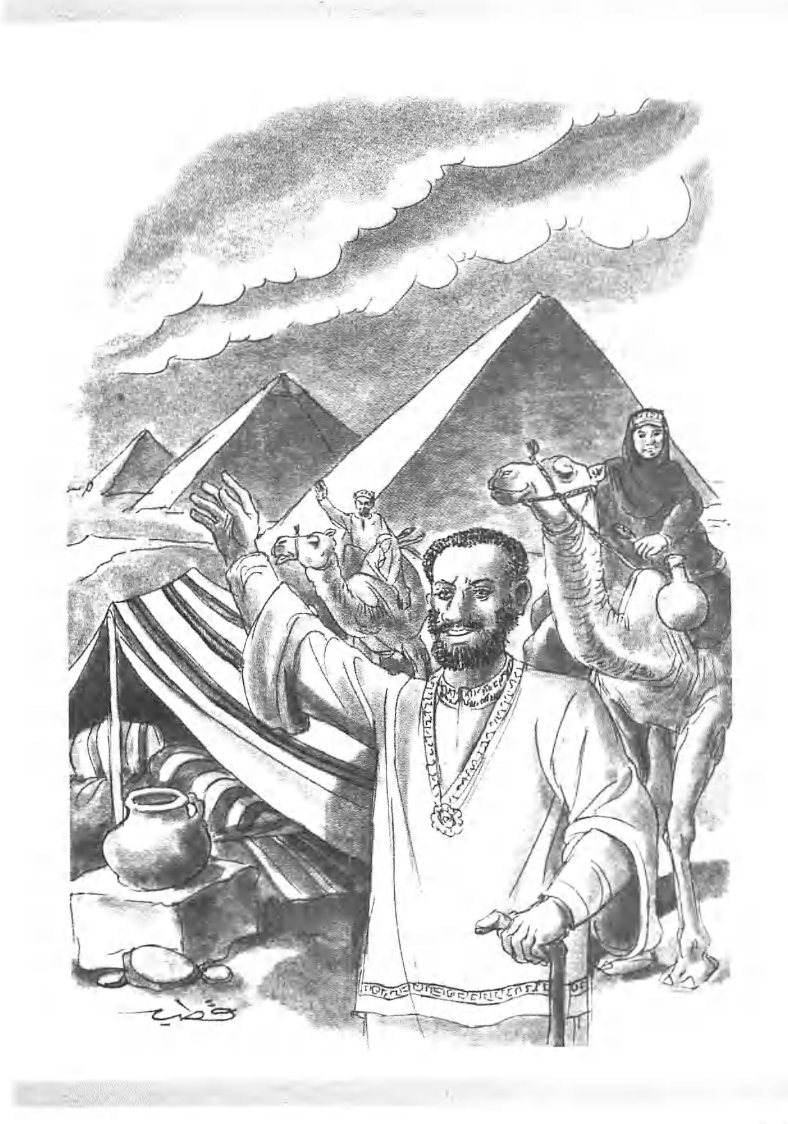
***

أوضح «عملاق» أنّ القاهرة يلتقي فيها السائحون والتجار من جميع أنحاء الأرض، كما تجد فيها أنواعا من التجارة والصناعة لا تخطر على بال. ولما كان التجار والسياح فيها مكرمين، فقد اتخذ «عملاق» صفة تاجر، بينما اتخذ الأمير وأخته صفة سائحين، لا همّ لهما إلاّ استطلاع معالم البلاد، ثم أضاف «عملاق» أنه عندما يعرف الناس أنهم من أهل اليسار، ستتفتح أمامهم الأبواب، فيتاح لهم أن يدرسوا أحوال الناس حتى يتدبر الأمير شأن تقرير مصيره.

باع «عملاق» بعض الحلي في اليوم التالي، واستأجر دارا زيّنها أجمل زينة، فاعتبرهم الناس من سراة التجار، وسرعان ما انجذبوا إلى دارهم. وهيأ «عملاق» لهما دراسة أحوال الناس من مختلف الطبقات، وذلك أثناء دراسة اللغة لمدة عامين. وبعد أن تعلم الأمير اللغة، وتعلم الحذر الضروري في مخالطة الغرباء، بدأ يصطحب «عملاق» إلى أماكن الترفيه، ويندمج في كل مناحي المجتمع لعله يهتدي بذلك إلى ما يناسبه في الحياة.

***

تردد الأمير على مجتمعات الشباب فأكرموا وفادته، لكنه سرعان ما انسحب منها بعد عدّة أيام، حين وجد أن أفراحهم خالية من الخيال، ومرحهم مفتعل، ولذاتهم حسّية غليظة.



وفيما كان الأمير يتجوّل ذات يوم في أحد الشوارع، رأى بناء رحيبا مفتوح الأبواب، فدخل مع الداخلين، فوجد نفسه وسط قاعة للمحاضرات، وهناك أساتذة يقرءون بحوثهم على السامعين. وتعلق بصره بحكيم يجلس في أعلى مكان بين الحكماء يخطب في الناس بحرارة حول ضبط النفس، ورأى تأثيره واضحا على السامعين. انتظر الأمير ذلك الحكيم عند باب الخروج، ورجاه أن يأذن له بلقائه ليتزوّد من حكمته النادرة، ولما رأى تردده وضع في يده كيسا مملوءا بالدنانير الذهبية، فاستقبل الحكيم منحته بمزيج من الفرح والعجب. وعندما طرق باب الحكيم، وسمح له بالدخول، إذا به يرى الفيلسوف قابعا في غرفته، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وشحب وجهه، فعرف منه أن ابنته الوحيدة التي كانت تحنو عليه في شيخوخته، قد ماتت بالحمى ليلة أمس، فتحطمت آماله، وانقضى أمله، بعد أصبح يعيش وحيدا بمعزل عن الناس. وحين حاول الأمير أن يوضّح له أن الموت حقّ علينا كبشر، رفض العجوز منطقه بحجة أنه لم يجرّب الفراق. وحين ذكّره بتعاليمه التي يدرسها للناس، أخبره أنه لن يجد عزاء في الحق والعقل؛ لأنهما يؤكدان أن ابنته رحلت ولن تعود. وأبت نفسه أن يؤنّب الحكيم البائس، فانصرف آسفا.

***

كان حرصه على البحث عن مواقع السعادة ما زال يلازمه، وكان قد سمع عن زاهد يقيم عند أول شلال من شلالات النيل، ذاع صيته في مختلف أرجاء البلاد، فقرّ عزمه على زيارته في صومعته؛ ليرى حياة الوحدة التي جلبت له السعادة، ووافق «عملاق» والأميرة على أن يرافقاه في

رحلته. وانقضت عدة أيام أخرى حتى وصلوا إلى موقع صومعة الزاهد التي دلهم الفلاحون عليها.

وحين أتيحت أخيرا فرصة لقائه، أوضح أنه اعتزل الناس منذ خمسة عشر عاما. كان في شبابه من رجال الجيش، خاض كثيرا من المعارك، ووجد أن الدنيا مليئة بالبؤس والتشاحن وأسباب العزلة، وحين تخطاه ضابط صغير في الترقية، سئمت نفسه الحياة العامة، فقرّ رأيه على أن يختم حياته معتزلا بعيدا عن الناس. وقد بلغ به السأم من هذه الحياة أقصاه، وإذا كان بفراره من المجتمع قد درأ عن نفسه شرّ الأشرار، إلا أنه فقد بالمقابل هداية الأخيار، وحين وازن أخيرا بين مزايا المجتمع ومضاره، صحّ عزمه على العودة إلى المجتمع!

كان قراره عجيبا، مفاجئا، لكنهم بعد أن تداركوا الصدمة، عرضوا عليه أن يصاحبهم إلى القاهرة، فقبل وسافر معهم.

***

تردد الأمير «راسيلاس» على مجمع من مجامع العلماء، التقى فيه مع رجال فكر في أوقات منتظمة ليتبادلوا الآراء. وهناك قصّ عليهم حكاية الزاهد، الذي أنّب نفسه لاختياره حياة الزهد برضاه، فتأثر بعضهم ممّا سمع، وكان بينهم رجل تأثر أكثر ممن سواه، وخمّن أن الناسك سيعود إلى معتزله بعد أعوام، فإذا لم يرده الخجل أو يعترضه الموت، فقد يخرج إلى الحياة مرة أخرى لأن أمل الإنسان في السعادة متأصّل في نفس البشر. وكان بين الحاضرين فيلسوف يستمع إلى كلامه بصبر نافد، فعارض بقوله إنّ

السعي وراء السعادة التي طرحتها الطبيعة بين أيدينا لمن عمل الكسالى المتبطلين لأن طريق السعادة هو اتباع الطبيعة بقانونها الثابت الذي نقشته يد القدر في كلّ قلب فجاء بالفطرة ولم نكتسبه بالتعلم.

انصرف الأمير إلى متابعة حديث الفيلسوف بكل جوارحه، ولما انتهى طلب إليه أن يهديه إلى الحياة التي تتمشى مع الطبيعة، فأوضح له بأنها الحياة، التي يعمل فيها الإنسان دائما تبعا لما تمليه العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج، وتبعا لما تتصف به هذه الأسباب وهذه النتائج من خواص. وسرعان ما أدرك الأمير، وهو يصغي إلى الحكيم، أنه كلما طال القول تعذّر الفهم، فلاذ بالصمت حزينا أسفا!

***

حين رأت الأميرة خيبة أمل الأمير، راحت تعزيه، ثم عرضت عليه خطة جديدة في أن يتشاركا في البحث، على أن ينفرد هو بدراسة حياة الأشراف، وتنفرد هي بدراسة الطبقات الأخرى، فوافق الأمير على خطتها، ووضعاها فورا موضع التنفيذ، وتقدّم إلى بلاط الباشا في حاشية عظيمة حتى يتبينوا علو قدره، وهو ما أسفر عن تقديمه مباشرة إلى الباشا وأعوانه العظام على أنه أمير جاء به حبّ الاستطلاع من أقطار بعيدة، وسرعان ما توثقت بينه وبينهم أواصر الصداقة.

وتدريجيا، توطدت صلته برجال البلاط، لكنه سرعان ما أدرك أن الكثرة الغالبة منها يكنّ بعضها المقت لبعضها الآخر، وأن حياتهم سلسلة من الدسائس وافتضاح أمرها. ووجد أن كثيرا من أعوان الباشا قد أرسلوا

إليه خفية ليراقبوا مسلكه، ويقفوا على نواياه. ثم جاء قرار عزل الباشا من القسطنطينية، فحمل إليها مغلولا بالأصفاد، وانطوى ذكره كأن لم يكن!

كانت الأميرة، في هذه الأثناء، تختلط بمختلف الأسر، فوجدت أنّ أكثر بنات الأسر على مرح عظيم، لكنهن يعشن في الحاضر وحده، فلا يتمثلن تجارب الماضي، ولا يتصورن حياة المستقبل، واكتشفت أن هناك الكثير ممّا ينغص على تلك الأسر، وأن الشقاق يسود بينها. كما كشفت تجربتها مع الطبقات الشعبية أن الكثرة الغالبة منها تجتهد لستر عوزها عن العيون، وتحيى من يوم إلى يوم، وهي تقضي عامة النهار في التفكير في حاجات الغد.

***

وذات يوم أخبرهما «عملاق» أن أعظم آثار المصريين قاطبة هي الأهرام، فاقترحت الأميرة أن يقوموا بزيارتها، فوافقوا على رأيها.

خرجوا في اليوم التالي، بعد أن حمّلوا جمالهم بالخيام، وقد اعتزموا أن يقيموا بين الأهرامات حتى يشبعوا فضولهم. فلما بلغوا الهرم الأكبر، راعهم ما رأوه من اتساع قاعدته وارتفاع قمته، فضربوا خيامهم عند سفحه. وأعدوا العدّة للدخول إلى غرفه الخارجية بعد أن استأجروا أحد الأدلاء، وصعدوا معه إلى المدخل الأول، الذي ما أن أطلت عليه وصيفة الأميرة، حتى تراجعت وهي ترتجف رافضة أن تدخل معهم إلى الأعماق بعد أن أخافها المدخل وحده، ورأت الأميرة أن أفضل ما تفعله مع جزع وصيفتها أن تتركها لشأنها، فأمرتها بأن تبقى في الخيمة حتى يعودوا.

***

ما أن أنهى الثلاثة جولتهم داخل الهرم وبلغوا خيامهم، حتى وجدوا أتباعهم جميعا في حزن مقيم، وقد بدا الخجل والخوف في عيون الرجال، بينما جلست النساء باكيات، وسرعان ما شرح أحدهم حقيقة ما حدث بقوله إنه بعد دخولهم الهرم هاجمتهم جماعة من الأعراب هجوما مباغتا فلم يستطيعوا مقاومتها ولم يستطيعوا الفرار. وحين أوشكوا أن ينهبوا خيامنا ويسوقونا أمامهم، ظهر نفر من فرسان الأتراك، فولوا الأدبار وقد أخذوا وصيفة الأميرة رهينة لديهم، وطاردهم الأتراك لكنهم لم يستطيعوا اللحاق بهم؛ لأنهم كانوا يركبون جيادا مدربة جيدا على الكر والفر. وحين وضح أنه لا رجاء في العثور عليها استأجر «عملاق» بعض الأشخاص ليتقصوا أنباء الوصيفة، ورجعوا إلى دارهم في القاهرة حزانى، نادمين.

وبعد مضي سبعة أشهر، عاد الرسل الذي خرجوا للبحث عن الوصيفة، وأعلنوا أن الوصيفة في قبضة سيّد من سادة الأعراب، يملك قلعة أو حصنا عند تخوم مصر الجنوبية، ويعيش على النهب والسلب، لكنه على استعداد لإعادتها لقاء مائتي أوقية من الذهب.

لم يناقش أحد مبلغ الفدية، وانتاب الأميرة فرح عارم، حين علمت أن وصفيتها يمكن عودتها فرجت أخاها أن يزوّد الرسول بالمال المطلوب ويوفده من جديد. وجرى اللقاء بعد عدّة أيام، حيث تسلم الأعرابي المال المتفق عليه، ورد إلى الوصيفة حريتها، فعانقت الأميرة وصفيتها عناقا حارا، وراحا يذرفان دموع الفرح!

***

عادوا إلى القاهرة فرحين بعد أن التأم شملهم ثانية، ورجع الأمير إلى مطلبه القديم، فنصحه «عملاق» قبل أن يقدم على اختياره، أن يستشير عالما فلكيا أفنى عمره في حياة الاعتكاف، بعد أن قضى أربعين عاما يدرس حركات الأجرام السماوية وظواهرها دون أن يصيبه الإجهاد. سعى الأمير سريعا إلى لقاء هذا العالم، فإذا به بعد أن اطمئن إليه يخبره بأنه حدث له تطوّر منذ عشر سنوات حين أصبح سلطانا على فصول السنة، وسيّدا على عناصر الطبيعة، بحيث يمكنه أن يستدعي المطر في أيّ وقت يشاء، وكان يكفيه أن يحسّ هذه القوة في نفسه، ويكفيه أن يباشرها كل يوم.

عندئذ أيقن الأمير أنّ الحياة يكتنفها القلق من كلّ جانب، لكن أفظع مصدر لتلك المخاوف هو اختلال عقل الإنسان، وأرجع الأمر إلى الوحدة والاستسلام إلى سلطان الوهم وإطلاق العنان للخيال.

***

وحلّ فيضان النيل، فلزموا دارهم، ورغبوا عن الرحلات؛ لأنّ الماء غمر المنطقة كلها، وقضوا وقتهم في الحوار، الذي توصّل كل منهم عبره إلى رسم خطة تهديه إلى الحياة السعيدة في قابل الأيام.

وجدت الوصيفة خلاصها في دير القديس أنطونيوس، وكان غاية مرادها أن تنصب رئيسة على راهباته بعد أن عافت نفسها الحياة المتقلبة ووجدت سعادتها في التماس الحياة الروحانية الهادئة.

ورأت الأميرة أن أثمن ما في الحياة هو المعرفة، فتمنت أن تدرس جميع العلوم أولا، ثم تؤسس مدرسة تديرها بنفسها وتجمع فيها عالمات من النساء.

وتمنى الأمير مملكة صغيرة يقيم فيها العدل بنفسه، ويشرف فيها على جميع فروع الدولة، ويبسط سلطانه على رعايا آخرين، لكنه تردد في تحديد تخوم مملكته.

وبقي «عملاق» وحده لا يطلب شيئا، ولا يسعى إلى وجهة معينة.

***

كانت الأماني جميلة، وكانوا يعلمون أن منالها محال، فتشاوروا قليلا فيما ينبغي عليهم عمله، وأخيرا قرروا أن يعودوا ثانية إلى الحبشة بعد انتهاء الفيضان!



اندلعت حرب رهيبة على كوكب الأرض، استمرت مائتي عام، فانتشر الخراب وعمّ الدمار في بقاع مختلفة، وفقد كثير من السكان أرواحهم، ولم ينج منهم سوى 2٪ فقط أقاموا دولتهم الموحّدة التي بلغت أعلى ذرا الحضارة الآلية داخل سور زجاجي أخضر متين فصل عالم الدولة الموحدة عن مخلفات الحرب من بشر وأشجار وطيور وحيوانات. وقد شيّد النظام مساكن الدولة كلها بنفس أسلوب بناء السور ذات جدران شفافة عاش فيها المواطنون على مرأى من الآخرين مغمورين دائما وأبدا بالنور ليس هناك ما يخفيه الواحد عن الآخر.

يحكم تنظيم الزمن والحركة الحياة بأكملها في الدولة الموحّدة، وهناك ساعتان يوميا مقررتان للراحة الشخصية، يمكن فيهما للأفراد أن يسدلوا ستائر منازلهم لممارسة الجنس بناء على تصريح خاص من السلطات المعنية.

ويحكم «المحسن» الدولة الموحّدة، ويجرى انتخابه بالإجماع كلّ عام بعد أن يهبط في مركز الدوائر حيث يصوّت له الجميع علنا برفع الأيدي في عيد الإجماع.

ويحافظ الحرّاس على الأمن، وكان بناء المساكن الكاشف لتحركات المواطنين يخفف من ضغط العمل الشاق الرفيع الذي يقومون به. وهناك

نوع آخر الحراس اللامرئيين يتابعون عن كثب عملية انتخاب المحسن، حتى إذا انحرفت بعض الأصوات فإنّهم يحددون أرقامها ليجرى تجنيبهم على الفور. كما يساهم الأفراد في الحفاظ على كيان الدولة فإذا رأى أحدهم خروجا عن المألوف وجب عليه أن يبلغ عمّا رأى إلى الجهات المسئولة خلال يومين وإلا اعتبر متواطئا.

ومن ناحية أخرى، إذا أخلّ أحد الأرقام بمسيرة الدولة فإنه يعتقل، فإذا لم يعترف فإنه يتعرض للتعذيب تحت القيادة المباشرة لمجموعة متخصصة من الأطباء وتحت إشراف المحسن نفسه. فإذا ما أدين، يعلن ذلك في جريدة الدولة، ويتم التنفيذ في ساحة المكعب في مناسبة يطلق عليها عيد العدالة.

وقد حققت الدولة الموحّدة حلا جوهريا لمشكلة الغذاء حين ابتكرت الغذاء النفطي منذ سنوات بعيدة. كما حلت إشكالية الجنس حيث جرى تنظيم تلك القوة الطبيعية، وإعطاؤها صيغة رياضية، وجرى الإعلان عن شريعة تاريخية حولها حين أصبح لكل رقم من الأرقام الحقّ في أيّ رقم آخر بوصفه ناتجا جنسيا.

كما حققت الدولة الموحدة إنقاذا للإنسان من اقتراف الجريمة، وذلك بإنقاذه من الحريّة بعد أن وضح على مرّ السنين ذلك الترابط الوثيق بين الحريّة والجريمة.

وهناك دعامة أخرى تقوم عليها الدولة الموحدة هي أن هناك عنصرين فاعلين في تكوينها هما: «أنا» الفرد المواطن و«نحن» الدولة الموحّدة. ومن

هذا المنطلق أصبح للدولة الموحدة كلّ الحقوق بينما وقعت كلّ الواجبات على كاهل الفرد؛ لأنّه جزء منها.

كما لم تعد الدولة الموحدة تعتمد على النظام القديم الذي كان يقتضي إطلاق أسماء على البشر للتعريف بهم واستعيض عنها بالأرقام التي تعتبر ركيزة أساسية فيها.

***

وبالمناسبة أنا أدعى «د- 503»، أحد العلماء القلائل الذين وصلوا إلى قمّة النظام، بل وكنت أيضا مصمم سفينة فضاء «الانتجرال» التي يعدّها النظام لغزو الكون.

أحاول أن أسجّل هنا في هذه الأوراق ما أراه وما أفكر فيه، أو بمعنى أصحّ ما نفكر «نحن» فيه، وليكن ذلك عنوانا لهذه المذكرات.

كانت هناك علاقة حبّ تربطني برقم «ف-90» التي كانت تبادلني نفس الشعور، وقد استمرت علاقتنا ثلاث سنوات، ثم بدأ ينتابها نوع من الفتور ربّما بسبب من إلحاحها المستمر، ورغبتها في أن تمارس دور الأم بأن تحمل وتلد خروجا على ما جرت عليه العادة في الدولة الموحدة، وهو ما قد يعرضنا لعقاب رادع.

ورغم المكانة التي أحتلها في النظام إلا أنّ هناك مشكلة شخصية صارت تؤرّقني لاسيّما وأنني أمتلك يدين مكسوتين بالشعر تماما مثلما كان الإنسان في ذلك الزمن البدائي القديم. كما أمتلك تفكيرا خاصا يدفعني باستمرار إلى الخوض في مناطق وعرة ويثير أسئلة غريبة حين أقرأ وأسمع

الكثير من غرائب تلك الأزمنة القديمة التي عاش فيها الناس بحرية وتوحّش بعيدا عن التنظيم، فكنت أتساءل كيف رضيت سلطة تلك الدولة أن يعيش الناس دون نزهات إلزامية، دون تنظيم أوقات للطعام والعمل، تاركة لهم حريّة أن يستيقظوا ويناموا كما يحلو لهم؟ ونتيجة لذلك كان يصيبني الأرق ليلا فيجافيني النوم بينما يفترض أنّ واجب الأرقام أن تنام ليلا حتى تستطيع العمل نهارا. لكن أكثر ما كان يزعجني حقا هو أنّ الأحلام بدأت تراودني رغم أن أبناء الدولة الموحدة لا ينبغي لهم أن يحلموا. فهل كان ذلك بزوغا لملمح قديم من شخصيتي التي كان يفترض أنه لم يعد لها وجود؟

وتدريجيا بدأ يغزوني ظنّ غريب هو أن ذاتي السابقة هي ذاتي الحقيقية، فاضطررت أن أذهب إلى الطبيب أشكو له أرقي وقلة نومي وما ينتابني من أحلام، فنصحني بالإكثار من المشي حتى ولو إلى البيت القديم، وأن أبدأ العلاج من صباح اليوم التالي.

***

مضيت في اليوم التالي مباشرة إلى البيت القديم الذي هو في ذات الوقت متحف الحضارة القديمة، وهناك قابلت أمينة المتحف «م-330» وسرعان ما توطدت بيننا علاقة جديدة ربّما لبساطتها في التعامل وارتباطها الشديد بالعالم القديم وألفتها مع مفرداته. كنت أسمع منها تعليقاتها حول العالم القديم، وأنا مازلت أعاني من حالتي وإن كنت أشعر أنني أستمتع بما أسمع، ربّما لأنني شعرت أن هناك شيئًا ما يبزغ بداخلي، كأن هناك زهرة ما تتفتح في أعماقي.

هكذا رجعت سعيدا جزلا إلى مبناي السكني ملقيا التحية إلى المناوبة، «خ»، الجالسة إلى مائدة فإذا بها تخبرني بأنني يجب أن أراعي صحتي؛ لأنني أهلك نفسي في العمل. كنت في الحقيقة أشعر أنّها معجبة بي، وسرعان ما تأكد ظنّي حين فوجئت بها تلحق بي في شقتي، فحدثتها عما أعانيه، وأطلعتها على المذكرات التي أكتبها، ثم أمضينا معا ليلة هانئة.

قرأت صباحا في جريدة الدولة بأنّه طبقا لتصريحات مصادر موثوق بها فقد تم العثور على آثار تنظيم طليق حتى الآن هدفه التحرر من ظلم دولة الخيّر الموحدة. وقرأت أيضا أنه سيقام في ساحة المكعب بعد يومين عيد العدالة، وكان معنى ذلك أنه قد حدث شيء غير متوقع وأن أحد الأرقام أخلّ مرّة أخرى بسير آلة الدولة.

تمشيت إلى متحف الحضارة القديمة حيث قابلت «م-330»، وقد توضح لي أنها تميل إلى القديم، وترتبط بقدر هائل من العلاقات التي تتغلغل داخل أركان النظام. وقد ثرثرنا طويلا حول أفكارنا وما يشغل بالنا.

اكتشفت بعد فترة من تنامي الثقة بيننا أنها تنتمي إلى تيّار المعارضة «الميفي»، الذين يدعون إلى عودة البشر إلى الطبيعة مرّة أخرى بعد أن جرى حجزهم طويلا وراء السور الزجاجي الأخضر. ونظرا لما رأته من شغف وأنا أتابعها عرضت عليّ أن نذهب معا إلى أحد اجتماعات الـ«ميفي» الذي ينعقد فيما وراء السور. جرفني الفضول فوافقت. رأيت هناك حشدا كبيرا من البشر، وسمعت أحدهم يخطب في الحاضرين ويتحدّث عن عزمهم على هدم السور وكلّ الأسوار حتى يتدفق الهواء الأخضر طليقا في كلّ الأرض

من أدناها إلى أقصاها. ثم استطرد ذلك الشخص موضحا أكاذيب النظام حول أنه لم ينج أحد من البشر، وأنه ليست هناك حياة خارج السور، بينما نجا كثير من البشر الذين لجأوا إلى الغابات وتعلموا من الأشجار والوحوش والطيور والزهور والشمس. وصحيح أنه نبت شعر على أجسامهم لكنهم احتفظوا تحت الجلد بدم أحمر. واستمر المتحدث مثيرا حماس الحاضرين بأنه يجب أن يساق بشر الدولة الموحدة عراة إلى الغابات حتى يتعلموا كيف يرتعدون من الخوف ويرتعشون من الفرح أو من الغضب المسعور أو من البرد وينشدون دفء النار.

ثم انتقل ذلك الخطيب إلى موضوع الساعة، قائلا بأنّ الجميع يعرفون أنهم يبنون داخل السور سفينة فضاء «الانتجرال» التي ستحمل نفس الأسوار إلى عشرات الكواكب الأخرى، وهو ما يتطلب أن نهدم كل الأسوار كي يهبّ الهواء طليقا على كلّ أرجاء الأرض.

وسرعان ما ارتفعت أصوات الحاضرين مرددة بحماسة هتافات بسقوط «الانتجرال»، وإذا بـ«م-330» تهتف وهي تشير إليّ بأنّ مصمم «الانتجرال» حاضر معنا، فارتفعت هتافات مؤيدة وامتدت الأيدي بالتحية والعرفان والتقدير.

حين سألت فتاتي بعد ذلك عن سبب اقتناعها بإمكانية نجاح مسعى المعارضة، أجابتني بأن الإنسان كما البراعم التي تشق طريقها عبر التراب بعناد. وبدت كلماتها بصدق كما لو كانت صدى لما أحسه داخلي من برعم جديد يتفتح.

***



لقاء سريع مع «م-330» في البيت القديم أخبرتني فيه بأن الحرّاس قبضوا على المئات من الميفي ولم يبق إلا القليل، وهو ما يتطلب التحرّك بسرعة والاستيلاء على سفينة فضاء «الانتجرال» مستغلين فرصة إجراء تجربة تشغيل في اليوم التالي لها، وهو ما يتطلب البقاء في الممر عند سماع قرع جرس الغداء وذهاب الجميع إلى المطعم فيجري إقفال باب المطعم على الجميع، ويتم الاستيلاء على «الانتجرال».

اعترضت على كلماتها متعللا بأنهم يعتزمون القيام بثورة، ثم موضحا بأن ثورة الدولة الموحّدة كانت آخر الثورات، وبعدها لن تقوم أية ثورة أخرى. لم تقتنع بكلامي مدعّمة رأيها بأنهم كذبوا وأن مسألة آخر الثورات منافية للعقل تماما ولا وجود لها في الطبيعة البشرية.

وبعد مناقشات طويلة انتهينا إلى الاتفاق على موعد الغد. وما أن غادرت حتى اندفعت خارجا بعد أن تملكتني الدهشة من كل ما جرى!

***

حمل اليوم التالي مفاجأة أغرب من الخيال رغم أنها تتعلق بالخيال فعلا، وذلك حين قرأت في الجريدة الرسمية مقالا كبيرا يقرّظ عمل الآلات الذي يتسم بالدقة المتناهية ويرجع ذلك إلى أنه لا يوجد لديها خيال. ثم راح يقارن بين الآلات والبشر الذين قد يعلو وجوههم أثناء عملهم ابتسامة حالمة دون معنى. وقد تزايدت تلك الابتسامات. لكن الذنب ليس ذنب البشر بل يرجع ذلك إلى مرضهم بمرض اسمه «الخيال». واستطرد المقال بأنّ علماء الدولة الموحّدة قد اكتشفوا موطن الخيال في الدماغ واكتشفوا عملية لإزالته إلى الأبد.

ارتعشت الجريدة في يدي وأنا أقرأ أخبار ذلك الكشف، ودار رأسي، وأجريت اتصالا مع «م- 330» فعرفت أنها قرأت ما قرأت.

مضيت في طريقي إلى ورشة سفينة الفضاء، فرأيت في القاعة عند الناصية بابا مفتوحا على مصراعيه يخرج منه طابور يسير ببطء ويتكون من نحو خمسين شخصا متجهمي الوجوه. كانت تخفق فوق رءوسهم في الهواء راية بيضاء مطرزة عليها كلمات: «**نحن الأوائل الذين أجريت لنا العملية! وليتبعنا الجميع!**»

وسرعان ما انفرط عقد المشاة كلّ يجري في اتجاه بحثا عن مهرب!

***

بدأت تجربة تشغيل سفينة فضاء «الانتجرال». ذهبت إلى غرفة الآلات. كنت متوترا. رأيت وجوها كثيرة أعرفها. صعدت إلى السفينة، وأصدرت أوامر التشغيل.

اقتربت ساعة الغداء. كان الجو مشحونا، وازداد التوتر. لكنني فوجئت بدخول الحرّاس مع دقات الساعة معلنة الثانية عشرة، وأمر قائدهم بإيقاف تجربة التشغيل. طالعتني نظرات تتهمني بالخيانة. لكنني لم أبلغ، فمن فعلها؟

هبطت من سفينة الفضاء، ورحت أفكّر بعمق فيمن يكون الفاعل، عندئذ تذكرت المناوبة «خ»، لابد أن تكون هي لأنها الوحيدة التي كان متاحا لها قراءة مذكراتي فذهبت بحثا عنها، لكنني لم أجدها.

رجعت إلى الشارع ثانية. كان هناك هذيان كامل خاصة بعد أن حاصر الحرّاس جمعًا من المارة، وارتفع صوت آمر: «**أسرعوا إلى العملية العظمى. هناك سيعالجونكم، فتنامون بهدوء، بعد أن يخلصوكم من علامات الاستفهام**».

اندفع كلّ فرد يبحث له عن ملاذ يحتمي به خشية إمساكه والدفع به جبرا لإجراء العملية. فررت مع الفارين راجعا إلى بيتي. أسدلت الستائر. حاولت أن أنام. جاءت «خ» في تمام الساعة 12 أيقظتني. لم يبق من مشهد لحظة حضورها في الذاكرة إلا صوت تنفسي بصوت عال. نهضت وعجلت بإمساك قطعة حديدية، فحاولت أن تهرب إلى الباب، لكنني أغلقت الطريق عليها، فتوقفت عن محاولة الفرار وهي ترجوني أن أهدأ. ثم اقتربت من السرير وبدأت تخلع ملابسها. عندئذ فهمت أنها اعتقدت أنني أسدلت الستائر لأني .. كان ذلك أمرا مباغتا وغريبا بحيث انفجرت في الضحك. وفجأة ارتفع رنين الهاتف. رفعت السماعة، فجاءني صوت من الطرف الأخر يخبرني بأن المحسن قد حدد لي موعدا في الغد لمقابلتي!

تغيّر الموقف تماما، وبدأت تستعد للانصراف وهي تنفي بإصرار أنها أخبرتهم عن «م-330».

***

قابلت المحسن في الموعد المحدد. أخبرني بأنني بتصميمي «الانتجرال» نلت شرف أن أكون أعظم الفاتحين لفصل جديد من تاريخ الدولة الموحدة. ثم أخبرني أيضا بأنّ الدولة لم تتوان في تحقيق السعادة للبشر

باستئصال خيالهم. وأخيرا حضّني على التبليغ فورا إذا ما عرفت أيّة معلومات عمن تآمروا على دولتنا الموحدة!

غادرت مكتب المحسن مجهدا لكنني سرعان ما اندهشت حين رأيت الناس يتدفقون من كلّ البيوت المجاورة؛ حيث كانت الغيوم تتدافع في السماء، وبدت هناك نقط سريعة تتكاثر في الجوّ وتتساقط وهي تتحلق فوق الرءوس. وأخيرا ظهرت حقيقتها. كانت طيورا تظهر للمرة الأولى في الدولة الموحدة فتملأ السماء وهي تهوي من عل لتحط على القباب والأسطح والأعمدة والشرفات. ثم عرفت السبب حين صرخ شخص ما «لقد فجّروا السور!»

هرولت إلى بيت «م-330» لكنني لم أجدها، فعدت إلى البيت حزينا أسفا. صحوت متأخرا في اليوم التالي فوجدت «م-330» تنظر إليّ. حاولت أن أشرح لها، لكنها أوقفت سيل حديثي، وأخبرتني بأنها على الرغم من كلّ شيء جاءت لتراني؛ لأنها تعتقد أننا ربّما لن نلتقي مرّة أخرى. ثم انصرفت.

فجأة تردد صدى كلمات المحسن في سمعي فانطلقت من فوري إلى مكتب الحراس وطلبت مقابلة رئيس الحرس لأنّ لديّ معلومات هامة أودّ الإبلاغ بها، فاصطحبني شخص إلى غرفة منزوية بعيدا عن زحام الحاضرين. وهناك قابلت المسئول الذي رحّب بإخلاصي للدولة، فرويت له كلّ ما رأيت بعد أن خرجت من السور وحضرت اجتماعا للميفي.. ومن شدّة انفعالي كانت كلماتي تتحشرج وتتقطع وتتوقف أحيانا فكان يكمل لي ويشجعني. وحين دققت النظر إلى وجهه عرفت أنّه كان أحد الأشخاص الذين كانوا هناك، فنهضت فورا واندفعت مهرولا إلى الخارج.

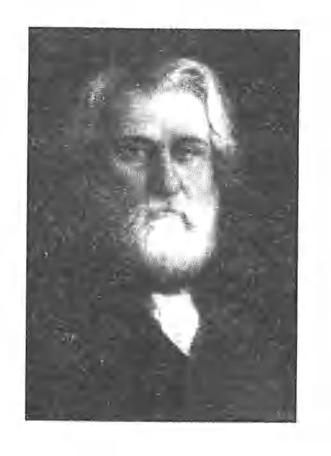
لم أتوقف إلاّ أمام أحد مراحيض عامة لمحطة مترو. وسرعان ما سمعت صوت خطوات على الدرجات، ظهر على أثرها الحرّاس الذين اصطحبونا إلى قاعة قريبة حيث أجريت لنا عملية استئصال الخيال!

***

عرفت بعد ذلك، أنهم تمكنوا من بناء سور مؤقت ذي موجات توتر كهربي عال. آمل أن ننتصر، بل أكثر من هذا: «أنا واثق ومؤمن أننا سننتصر لأنّ العقل يجب أن ينتصر!»

المؤلفون الذين ورد
ذكرهم في هذا الكتاب

إيفان تورجنيف Ivan Turgenev



«إيفان تورجنيف» (1818-1883) روسي الجنسية، أبدع في مجالات القصة القصيرة والرواية والمسرح. ويعتبر احد العلامات الفارقة في مسار الواقعية الروسية، كما تعتبر روايته «الآباء والبنون» واحدة من أهم الأعمال الروائية في القرن التاسع عشر.

أمضى إيفان سنة بجامعة موسكو بعد دراسته المعتادة كأحد أبناء الأثرياء. ثم انتقل إلى جامعة سانت بطرسبرج مركزا فيها على دراسة الكلاسيكيات، فقه اللغة، والأدب الروسي. انتقل بعد ذلك إلى جامعة برلين عام 1838 لدراسة الفلسفة حيث أعجب بالمجتمع الألماني.

بدأ تورجنيف بكتابة القصة القصيرة التي سرعان ما جمعها في مجلد صدر عام 1852، اعتبره تورجنيف مساهمة في الأدب الروسي، وقد امتدحه تولوستوي وآخرون. ارتحل عام 1851 إلى أوروبا حيث أنجز هناك رواية «روبين». ثم أبدع عام 1860 رواية «الحب الأول» التي تعتبر واحدة من أجمل رواياته وترجمها إلى اللغة العربية محمود عبد المنعم مراد لأول مرة عام 1946. كما نشر رواية «الآباء والبنون» عام 1862 ، ثم رواية «دخان» عام 1867. وقد ترجمت معظم أعماله إلى اللغة العربية.

ستيفان زفاييج Stevan Zweig



ستيفان زفاييج (1881-1942) كاتب نمساوي، درس الفلسفة في ڤيينا وحصل على درجة الدكتوراه عام 1904 .

عمل زفاييج في أرشيف وزارة الحرب وسرعان ما اكتسب نفس موقف «رومان رولان» صديقه الداعي للسلام، الذي نال جائزة نوبل عام 1915. وقد ظل زفاييج مناصرا وداعيا للسلام طوال حياته، كما دعى أيضا إلى وحدة أوروبا. وكتب سيرته الذاتية بعنوان «عالم الأمس».

فرّ زفاييج من النمسا عام 1934 عند وصول هتلر إلى الحكم في ألمانيا، وعاش في لندن بدءا من عام 1939، قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1940. ثم ارتحل إلى البرازيل عام 1942 حيث انتحر مع زوجته الثانية يأسا من مستقبل أوروبا ومستقبل ثقافتها.

اشتهرت أعمال ستيفان زفاييج خلال حقبتي العشرينات والثلاثينات، وأصبح كاتبا مشهورا، ومازال يتمتع بهذه الشهرة حتى الآن في عديد من البلاد الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية. ومن أشهر أعماله «احذر من الشفقة»، «رسالة من امرأة مجهولة»، و«أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة»، التي ترجمتها فاطمة نظامي وصدرت عن دار حوران للنشر بدمشق عام 2002.

توماس مان Thomas mann

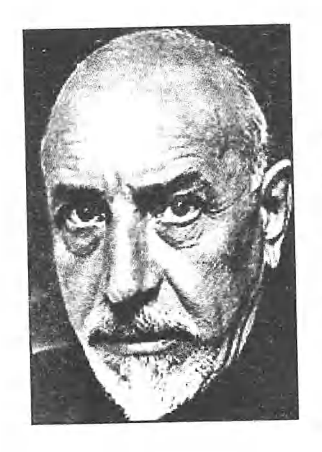


توماس مان (1875-1955) هو الروائي والناقد، وأحد أهم الشخصيات في أدب القرن العشرين قاطبة. اكتشفت رواياته العلاقة بين الاستثناء الفردي والبيئة المحيطة، سواء أكانت البيئة هي الأسرة، أم العالم عامة.

كتب عددا من القصص القصيرة، قبل كتابة أول رواياته الهامة «آل بودنبروك» (1901)، التي أسست شهرته الأدبية، وترجمت إلى عديد من اللغات الحية. تتضمن رواياته التالية: «تونيو كروجر» (1903)، «موت في ڤينيسيا» (1912)، و«الجبل السحري» (1924)، التي تعتبر واحدة من أهم روايات القرن العشرين، «حزن مبكر» (1925)، «ماريو والساحر» (1930)، رباعية «يوسف وإخوته» (1934- 1944)، و«دكتور فاوستوس» (1947). حصل على جائزة نوبل 1929. مات في سويسرا بتاريخ 12 أغسطس 1955.

ترجم الشاعر بدر توفيق رواية «الموت في ڤينيسيا» وصدرت عن دار الهلال (نوفمبر 1995).

لويجي بيريندللو Luigi Pirandello



لـويجي بيرينـدللو (1867-1936) مـن مواليد جزيرة صقلية بايطاليا. درس فقه اللغة في روما وبون، وكتب أطروحتـه عـام 1891 عن اللهجة المحليـة في مسـقط رأسـه. عمـل أستاذا لعلم الجمال والأسلوبية في الفـترة مـن 1897 حتـى 1922 وذلـك في أحـد معاهـد روما.

كتب كثيرا من القصص، إضافة إلى ست روايات. لكن إنجازه الأكبر كان في مسرحياته التي نشرت في الفترة ما بين عام 1918 و1935، ولعل أشهرها إطلاقا هي مسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف». كما تعتبر الفكاهة عنصرا أساسيا في مسرح بيرينديللو. نال جائزة نوبل في الأدب عام 1934.

نشرت قصة «الشريكان» لأول مرة في مجلة «ترانسليشن» العدد 20 ربيع 1988.

سنكلير لويس Sinclair Lewis



ولد سنكلير لويس (1885-1951) في ولاية منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية. كان أبوه طبيبا. التحق بجامعة «يال» في عام 1903، لكنه هجرها بعد ثلاث سنوات كي ينضم إلي جماعة «ابتون سينكلير»، التي أنشأها الكاتب الاجتماعي انجلوود.

انتقل في عام 1908 إلى نيويورك، حيث أصبح كاتبا مستقلا. طبعت روايته الأولى «هايك والطائرة» عام 1912، تبعتها رواية «السيد ورين خاصتنا» (1914)، و«محاكمة الصقر» (1915). لكن روايته «الشارع الرئيسي» (1920)، كانت هي التي أسست شهرته كروائي عظيم.

نشرت رواية سنكلير لويس العظيمة «بابيت» عام 1922، وتلتها رواية «أروسميث» (1925)، التي نال عنها جائزة البوليتزر، ورواية «دودزوورث» (1929)، وأصبح في عام 1930، أول أمريكي ينال جائزة نوبل في الآداب.

استمر لويس في الكتابة، ونشر رواية «آن فيكرز» عام 1933، وتبعتها رواية «لا يمكن أن يحدث ذلك هنا» (1935)، التي كانت تحذّر من أخطار الفاشية. توفي سنكلير لويس في عام 1951.

أمّا قصة «السائق المأجور»، فهي من مجموعة «قصص مختارة»، التي صدرت عام 1935.



هنريك سينكويز Henryk Sienkiewicz

هنريك سينكويز (1846-1916) من مواليد قرية رولا أوكرزجسكا في بودلاسي ببولندا.

تمتد جذور أسرته إلى التتار، الذين استقروا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في ليتوانيا. كانت أسرته دائمة الانتقال، لكنها استقرت في وارسو بدءا من عام 1861. وكان هنريك قد بدأ دراسته الثانوية فيها منذ عام 1858. وقد قبل عام 1861، تحت ضغط ظروف المعيشة الصعبة، وهو في التاسعة عشرة من عمره، أن يعمل بوظيفة معلم لأسرة بولندية.

أنهى دراسته الثانوية عام 1866، وحصل على دبلوم المدرسة الثانوية، وطبقا لرغبة والدية اجتاز امتحانات القبول لدراسة الطبّ بجامعة وارسو، لكنه سرعان ما تركها بعد بعض الوقت متحوّلا إلى الدراسات القانونية، وانتهى به الأمر إلى الانتقال إلى معهد فقه اللغة والتاريخ، حيث اكتسب معرفة بالأدب البولندي القديم.

بدأ ينشر أعماله تحت اسم مستعار، هو «ليتووس»، وأخذ اسمه يلمع في سماء الأدب. أنهى روايته الأولى «ضحية»، ثم تبعتها روايات «بلا جدوى» عام 1871، «الخادم العجوز» (1875)، «هاينا» (1776)، و«سليم ميرز» (1877).

سافر عام 1876 إلى الولايات المتحدة، حيث استقر طويلا في كاليفورنيا، وألهمته تلك الفترة كتابة الأعمال التالية: «كوميديا الأخطاء» (1878)، «برزي شيبي» (1879)، «من أجل الخبز» (1880)، وقصة «قيّم منارة اسبينول» (1881). وقد حصل على جائزة نوبل عام 1905.

توفي في 15 نوفمبر 1916.

ريديارد كيبلينج Rudyard Kipling



ولد الإنجليزي ريديارد كيبلينج (1865-1936) في مدينة بومباي بالهند. أبوه هو لوكوود كيبلينج، منشئ مدرسة الفنون في لاهور. أرسله أبوه كي يتعلم في جامعة «يونيتد سيرفيسس» ببيدفورد بإنجلترا. رجع في عام 1882 إلى الهند، حيث وجد عملا في صحف أنجلو- هندية، منها «سيفيل» و«ميلتاري جازيت». وقد ظهرت مقالاته وقصائده أولا في تلك الصحف، بادئا عبرها مستقبله الأدبي، ثم جمع تلك القصائد في ديوان «قصائد قصيرة مقسّمة إلى دوائر» (1886).

ظلّ يكتب وينشر أشعارا وقصصا قصيرة، وسرعان ما اشتهر كشاعر وككاتب قصص قصيرة، واكتسب شهرة هائلة في الهند. ثم جرّب حظه في بريطانيا بنشر روايته الأولى «الضوء الذي سقط» (1890)، التي لم تحقق له ما كان ينشد من شهرة. لكن الشهرة سرعان ما واتته من أوسع أبوابها مع «كتاب الغابة» (1894). وتوّج في النهاية شاعرا للإمبراطورية البريطانية، ومدافعا عنها، وجنديا مخلصا لها، ونال شهرة ومجدا عن عديد من أعماله، وحصل على جائزة نوبل عام 1907

نشر آخر أعماله «بعض من نفسي» في لندن عام 1934، ثم مات في 18 يناير 1936.



صمويل جونسون

Samuel Johnson

صمويل جونسون (1709-1784)، إنجليزي الجنسية ولد في بلدة ليتشفيلد بمقاطعة ستافورد شاير بانجلترا.

كان صمويل جونسون منذ طفولته معتل الصحة، ضعيف البصر. التحق بمدرسة ليتشفيلد، حيث بدأ تعلم اللغة اللاتينية، ثم انتقل بعد فترة إلى الدراسة الثانوية، وكان أستاذه في اللغة اللاتينية هو ناظر المدرسة، الذي كان يستخدم الشدّة في تعليمه. وبعد أن أتمّ دراسته الثانوية، تفرّغ لمعاونة أبيه في مكتبته. لكنه كان يزاول القراءة فيها أكثر ممّا كان يزاول البيع والشراء، فكانت تلك هي فترة تكوّنه الحقيقية. وحين بلغ من العمر التاسعة عشرة التحق بجامعة أوكسفورد عام 1728 فكان يعرف أكثر من أقرانه، لكن متاعبه المالية وقفت له بالمرصاد، وأعجزته عن استكمال دراسته فترك الجامعة بعد عام ونصف العام من الدراسة. ثم كسدت تجارة أبيه، وتوفي في عام 1731، فنزح صمويل إلى برمنجهام حيث تزوّج في عام 1935 من أرملة عجوز. وفي عام 1737 نزح إلى لندن طلبا للشهرة والجاه حيث بدأ اجتهاده الأدبي، فاشتغل بالصحافة وأنجز تراجيديا بعنوان «أيرين»، ثم نشر عام 1738 قصيدة «لندن». وفي عام 1745 نشر جونسون دارسته «ملاحظات على تراجيديا ماكبث». وفي

عام 1749 أصدر قصيدته الثانية «عبث أماني الإنسان». وقد ساءت صحة جونسون وأصيب بنوبة من الكآبة، عندما ماتت زوجته العجوز. ثم قام بإنجاز «قاموس اللغة الإنجليزية» في عام 1755، الذي استغرق منه ثماني سنوات ونصف سنة. وفي العام التالي أقبل على مشروعه الكبير الثاني، وهو إصدار طبعة جديدة من شكسبير قام فيها بكل ما تتطلبه الأمر من جمع وتحقيق وتعليق، فاستغرق الأمر منه تسع سنوات، حتى صدرت أخيرا في عام 1765. وهكذا توجته إنجازاته الأدبية الكبيرة كأعظم ناقد في تاريخ الأدب الإنجليزي.

وكان قد كتب رواية «راسيلاس» عام 1759 التي ترجمها الدكتور لويس عوض تحت عنوان «الوادي السعيد»، وصدرت عن سلسلة «اقرأ» بدار المعارف في 1971.

يفجيني زمياتين

Yevgeny Zamyatin



ولد يفجيني زمياتين (1884 – 1937) في لبيديان ،التي تبعد ما يقرب من مائتي ميل جنوب موسكو. كان أبوه قسّا كاثوليكيا وناظر مدرسة وأمه امرأة متعلمة محبّة للأدب وتعزف على البيانو. وقد أوضح يفجيني زمياتين في سيرة حياته عن طفولته بأنها كانت طفولة بلا أصدقاء وكان الأصدقاء هم الكتب.

التحق عام 1902 بمعهد بناء السفن في بتسبرج، ثم تخرّج منه عام 1908، وفي نفس العام ظهرت له أول قصة بعنوان «وحيد» التي استفاد فيها من تجربة سجنه!

ثم نشر «حكايات المقاطعة» في عام 1913 التي سجلت أول نجاح أدبي له، وكانت تدور حول الحياة في مدينة روسية صغيرة. ثم تعرّض في عام 1914للمحاكمة في عهد القيصر للمرة الأولى في حياته بينما كان يحاول أن ينشر رواية «عند نهاية العالم» التي كانت تدور حول حياة بعض الضباط العسكرية ، واعتبرتها السلطات إهانة للسلك العسكري، وقبض على الناشر بينما سافر زمياتين إلى الشمال لفترة!

أنجز رواية «نحن» عام 1921 وقرأها في اجتماع عقدته جمعية الكتّاب السوفييت فحظرت الرقابة نشرها داخل الاتحاد السوفييتي، غير أن

مخطوطة الرواية تسربت إلى الخارج ونشر ملخص لها في داخل البلاد فقامت جمعية الكتاب بلومه فقدّم استقالته من عضويتها!

وعلى الرغم من مصادرة الرواية فقد عرفها العالم من خلال ترجمتها الإنجليزية التي صدرت عام 1924 ثم الفرنسية عام 1929 رغم أنها لم تصدر كاملة باللغة الروسية إلا عام 1988 في ظلّ حكم جورباتشوف!

تعتبر رواية «نحن» (1920) (ذروة) إبداع الكاتب الروسي الكبير يفجيني زمياتين، وقد ترجمها يوسف حلاق وأصدرتها وزارة الثقافة السورية ضمن سلسلة روايات عالمية – العدد 49 بدمشق عام 1994.

صدر من هذه السلسلة

روائع الأدب العالمي في كبسولة (1) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (2) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (3) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (4) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (5) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (6) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (7) — عرض وتبسيط مختار السويفي
روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) — عرض وتبسيط حسين عيد
روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) — عرض وتبسيط حمدي عباس
روائع الأدب العالمي في كبسولة (10) — عرض وتبسيط حسين عيد